# رجـــل عـــدن

## والسيدة ذات العيون الزرقاء

(رواية)

تأليف:

كلارا خانـــيس

ترجمة وتقديم:

د. طلعت شاهين



# رجـل عـدن

## والسيدة ذات العيون الزرقاء

EDITORIAL HISPANO-EGIPCIA
SANABEL
سنابل للنشر والتوزيع
N.I.F. 80326680-Q

الإشراف العام
د. طلعت شاهين

مدير التحرير
علي حامد

للإتصال:
Mob.:
(+2012) 410 20 08
e-mail:
sanabook@maktoob.com
sanabook@hotmail.com




**رجل عدن**

المؤلف :
كلارا خانيس
ترجمة:
د. طلعت شاهين

الطبعة الثانية :
اغسطس 2005
رقم الإيداع:
٢٠٠٥/٥٥٥١
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
977-5634-16-4

لوحات الغلاف:
طلال النجار (اليمن)
محمد عبلة (مصر)

تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك

## تقديم

تُعتبر الكاتبة الإسبانية "**كلارا خانيس**" من أبرز المبدعات المعاصرات، ليس في إسبانيا فحسب، بل في الدول الناطقة باللغة الإسبانية (إسبانيا وأمريكا اللاتينية)، سواء في مجال الرواية أم الشعر. وأصبحت خلال السنوات الأخيرة من أبرز المشاركات في معظم اللقاءات الثقافية من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، وبشكل خاص عندما يتعلق اللقاء بالتصوف: إبداعاً ودراسة.

ولدت "**كلارا خانيس**" في برشلونة عام 1940، لأب كان معروفاً في الحياة الثقافية الإسبانية، كواحد من أبرز شعراء إقليم قطالونيا، شمال شرق إسبانيا، خلال القرن العشرين. وزادت شهرته عندما أنشأ داراً للنشر كانت تحمل اسمه، ولا تزال قائمة، ولكن انتقلت إلى ملكية آخرين: "**بلازا أي خانيس**".

بدأت الشاعرة تعليمها في مسقط رأسها ثم انتقلت لاستكمال دراستها الجامعية بمدينة بامبلونا، إلى أن حصلت على الليسانس في الفلسفة والآداب، ثم انتقلت بعد ذلك إلى باريس، لتدرس في جامعة باريس الرابعة بالسوربون، وحصلت منها على الليسانس في الآداب أيضاً.

تنقلت بين جميع أنواع الإبداع في اللغة الإسبانية: الشعر والقصة والرواية والدراسات الأدبية، إضافة إلى الترجمة عن الفرنسية والتشيكية، وأجادت فيها جميعاً، وحصلت على العديد من الجوائز الأدبية الوطنية والدولية، منها الجائزة الوطنية للترجمة، عن مجمل الأعمال التي ترجمتها إلى لغتها الوطنية، وكرّمتها الحكومة التشيكية لترجمتها معظم أعمال

الشاعرين التشيكيين: فلاديمير هولان وياروسيلاف سيفيرت، ومن الكُتاب الذين نقلت أعمالهم إلي اللغــة الإســبانية: مارجريــت دوراس، وناتــالي ساروت، وكاترين وويليام جولدنج.

نقلت أيضاً، إلى اللغة الإسبانية العديد من الأعمال الأدبية عبر لغــات أخرى، بشكل خاص الأعمال الصوفية المكتوبة بالتركية والفارسية، وذلك بالاشتراك مع مترجمين يجيدون تلك اللغات، ومنها رباعيات الخيام التــي صاغت ترجمتها شعراً، ويعتبر النقاد صياغتها للرباعيات، مــن أفضــل الصياغات التي تم نقلها إلى اللغة الإسبانية.

شعرياً تنتمي "**كلارا خانيس**" إلى ما يمكن تسميته "جيــل الســتينيات" الذي مهد وشارك في الثورة الشبابية عام 1968، التي كانت نقطة تهــدف إلى أن تكون تحولاً في الحضارة الأوروبية المعاصرة، ولكن سرعان مــا انتكست هذه المحاولة، لتسقط أوروبا في مستنقع الاستهلاكية المادية التــي تطحنها الآن، ولا تترك لها مجالاً لترى أبعد من مكان قدميها، فذابت المثُل العليا التي نادى بها هؤلاء الشباب تحت وطأة عمــى الألــوان السياســي للزعامات الأوروبية، التي لا تزال ترى فــي الأمــم الأخــرى مشــروع عبودية، والدول التي لا تنتمي إلى تلك القارة مشروع مستعمرات، ولكــن بعض هؤلاء الشباب، خاصة المبدع منهم، حاولوا الإفلات من تلك القبضة القاسية التي أمسكت بخناقهم، ليُشكِّلوا منحى جديداً في مجال الإبداع.

كانت "**كلارا خانيس**" أحد الأصوات الشعرية الأوروبية التي تمسكت بالمبادئ، التي أجهضها السياسيون، وغادرت المادية القاتلة التي تحتــوي روح الغرب لتبحر في عوالم النقاء والنور، واختار صوتها أن يبحر فــي اتجاه بعيد، بحثاً عن روح ثقافتها الأصيلة التي تمتد بجذورها إلى الجذور

العربية الإسلامية، التي شكّلت ولا تزال تُشكّل روح الثقافة الإسبانية منـــذ سقوط غرناطة، وحتى هذه اللحظة، رغم محاولات البعض إنكـــار ذلـــك. وفي هذا المجال تقف الشاعرة "**كلارا خانيس**" بصوتها، إلى جوار أصوات أخرى تُعلن عن تمسكها بتلك الجذور، وأيضاً تؤكد تمسكها بهـــذا الإرث، خاصة في شقه الروحي، الذي مزجه "**سان خوان دي لا كروث**" مبكـــراً، بروح إسبانيا المسيحية، ثم أكد عليه عدد من كبار المبدعين المعاصـــرين، وعلى رأسهم الروائي المعاصر "**خوان جويتيسولو**"، وإذا كان هذا الكاتب يعتبر "**محيي الدين بن عربي**" المرسي الأندلسي، أستاذاً، وجذراً أصيلاً في تكوينه الثقافي، فإن "**كلارا خانيس**" تتجاوز ذلك لتمر عبر صوفية "**محيـــي الدين بن عربي**" و "**جلال الدين الرومي**" إلى الثقافـــة الإســـلامية بكـــل جذورها العربية وغير العربية، وبتراثها الروحي الصوفي، الذي يتجـــاوز المادية التي تعتصر الحياة الأوروبية المعاصرة، فتقتل كل حس إنســـاني، وتحكم عليه بالغربة والاغتراب، حيث:

**" كل الصنابير تنزف**
**الدواليب مليئة بالغبار**
**...**
**والملابسُ محكومةٌ بالفوضى**
**وعندما تنفتح الأبواب**
**تُلقي بأحشائها**
**التي تُحَرِّض على الطعن".**

لذلك، يقول عنها الشاعر والناقد الإسباني "**كاباييرو بونالد**" أحد أبرز شعراء "**جماعة الخمسينيات الشعرية**"، أنها تتفرد عن أبناء جيل الستينيات

الذي تنتمي إليه، بأنها من الذين يجب قراءتهم في عزلة وهدوء، لأن شعرها يدعو إلى التأمل والتوحد والتركيز، فتركيز تعبيرها وحواراتها الدرامية الداخلية تتطلب اقتراباً محسوباً، وتدرجاً في فهم رموز شعرها الذي لا يسلِّم نفسه للقارئ من الوهلة الأولى، ثم يصف شعرها بأنه مركَّب ومُعقد، على الرغم من أنها لا تحاول أن تتلاعب بالألفاظ، كما يحلو للبعض، للخروج على المألوف، إنما هي تكتب شعراً مركَّباً في صوره وأفكاره. ووصفتها الكاتبة الإسبانية الراحلة "**روسا تشاسيل**" بأنها من أبرع شاعرات الحب وأرقهن وأجملهن في التعبير عن المشاعر.

ويمكن وصف صوت "**كلارا خانيس**" في شعرها بأنه صوت الخوف، لكنه الصوت الخائف المذعور من المادية القاتلة، التي تسيطر على الحضارة الغربية المعاصرة، التي نشأت في أحضانها، لذلك فإن شعرها قفزة إلى عوالم جديدة، عوالم غريبة عن تلك الحضارة، ولكنها ليست غريبة عنها، كوريثة لتراث من الصوفية الروحانية، سواء الإسلامي منه عند "**جلال الدين الرومي**" و"**محيي الدين ابن عربي**" أو حتى "**عمر بن الفارض**"، والمسيحي المتمثل في كتابات الذين اتخذوا من الروحانية الصوفية، طريقة في الحياة والإبداع مثل "**سان خوان دي لا كروث**".

اتخذت الشاعرة من هذه الروحانية ملجأ لها لتمارس منها حريتها المطلقة في الإبداع، حيث لا اعتراف بالقوانين الوضعية على هذه الأرض، بل الحاكم الأوحد هي القوانين الخاصة بالمبدع وقوانين جذوره الثقافية، ومن هنا فإن الصور الفنية في إبداعها الشعري لها خاصيتها الشخصية، التي قد تبدو منغلقة على القارئ الذي لا يعرف صوتها الشعري، أو ليست لديه معرفة حقيقية بهذا الشعر المتفرد في قاموسه اللغوي والتصويري.

وشعر "**كلارا خانيس**" ينبع من الصفاء والشفافية، النابعة عن معاناتها في تعاملها مع العالم الخارجي، الذي يدور في واقع حياتها اليومي، لـذلك فإنها تمسك دائماً بين يديها بحقيقتها الخاصة، وتحاول أن تتقدم بها، وحيدة في مواجهة هذا الواقع، وتحتوي أشعارها صوراً بالغة الكمـال، مضـفرة بالهواء:

"**يصل شجر اللوز بزهوره إلى نافذتك**
**هارباً من أفكاري**
...
**ويشعل**
**خجل الخوخ المعطر**".

مع ذلك فإنها تسافر في عوالمها المكتشفة التي قادت نفسها إليها، بعيداً عن الواقع المحيط بحياتها، وتُشكِّل الميثولوجيا جزءاً أساسياً من عوالمهـا هذه، لكنها تسافر أو تحج وحيدة، إلا من كلماتها التي تختبئ مـن خلفهـا، كفارس يشق طريقه من خلف درعه الوحيد:

"**... وعلى الصفحة البيضاء**
**انبعثت الكلمة**
**واتخذت شكلها الحي...**"

سَفرها مُبحرة في عوالمها الروحية المكتشفة، لم يكن مغامرة لغويـة فحسب، بل كان مغامرة روحية مطلوبة لتتخلص مما علق بها من الحيـاة اليومية المعاصرة، التي هددت حياتها بالتحول إلى "**شيء عادي**".

من أبرز إنجازاتها الشعرية كتابها "**وضاحات الغابة**" الذي كان نقطـة التحول من الكلمة اللاموسيقية، والكلمة اللاغنائية، والكلمة المجردة:

**"... سمعتُ الحشائش تغني**
**في كل ربيع تنمو الحشائش**
**أنا أمكنني اكتشاف هذا**
**إنها خيول المجدلية التي تحرث الأرض**
**إنها المجدلية التي تزحف لتلقي بنفسها تحت قدمي يسوع**
**وأخيراً حين تلمسهما**
**في هذه اللحظة**
**تُزهر الحدائق. "**

تنبأ الناقد "**لويس دي بابلو**" بمغامرتها الشعرية، في تقديمه لكتابها "**كامبا Kampa**" فقال:

"إنني أعتقد أن هذا الكتاب الشعري مقدمة لمغامرة شعرية جديدة، وأن هذه المغامرة الجديدة، ربما تقود إلى كتاب شعري جديد، أو كتاب من عدة أجزاء، ربما ثلاثة، كتاب شعري، كاشف بشكل حقيقي عن مرحلة جديدة، وهذه الشاعرة لديها قدرة حقيقية، على تفكيك وإعادة تركيب الكلمات، وتوجيهها إلى معانٍ، ربما تخفى علينا جميعاً، ولكنها تكون طوع بنانها.

ربما تنفيذاً لنبوءة الناقد، قدَّمت لنا الكاتبة "**ديوان حجر النار**" أو أسطورة "**مجنون ليلى**" كما تسميها، وهو الكتاب الذي يمكن أن يكشف للقارئ العربي مدى اقترابها من ثقافتنا، وفي الوقت نفسه كان، فصلاً جديداً، أو مغامرة مجنونة في رحلة "**كلارا خانيس**" الطويلة مع الشعر إبداعاً وترجمة.

تعاملها مع هذه الأسطورة العذرية العربية لمجنون ليلى، جاء من منطلقها الخاص، وطبقاً لمنطقها المغاير لمنطق الحياة اليومية، ومغاير

حتى لمنطلقات معظم الذين تعاملوا مع هذه الرواية العذرية، فهي كأنثى لم تتخذ من ليلى صوتاً لها، كما كان متوقعاً منها، كأنثى غربية قد تجد في صوت ليلى شيئاً من التغريب المغري، الذي يمكنها أن تقدمه إلى قراء لغتها، واللغات الأوروبية الأخرى، كنوع من تفردها بين شعراء جيلها، بل ارتدت ثوب المجنون، لأنه هو العاشق والمحب الحقيقي في رأيها، الذي يستحق التمجيد، فلم يكن مُحباً أفناه الحب ورضي بما قُدِّر له، بل كان روحاً متمردة على واقع محكوم بقوانين لا تعترف بالروح المحركة، لهذا الحب الصافي النقي:

**"رفض القيم**

**الخروج على العار**

**الاستسلام الكامل للحب**

...

**وفي روحه تتوغل**

**جمرة متقدة..."** .

فحوّلته الشاعرة، وتحوّلت معه، إلى شهيدين لعشق أسمى من عشق البشر الأرضي:

**"... والحب عريه، وغطاؤه**

**الجنون والسحر والمطلق والوعي..."**

نحت الشاعرة بالأسطورة العربية باتجاه روحها القلقة، فأضفت على نفسها من روح "المجنون" المحب، ورسمت نفسها في روحه "القلقة، وألقت به في تيه الصحراء، وسافرت معه في تجربة روحية عذبة ومعذبة في آن، فكانت كتابتها الجديدة لهذه الرواية محفوفة بالعديد من المخاطر، لذلك حاولت أن تنبه إلى هذه المخاطر، خوفاً من اتهامها بالتغريب، لمجرد تقديم

ما لا يوجد في ثقافة جيلها المعاصرة:

**"أيها الساقي، املأ الكأس**
**لأغني عن كامل السيرة**
**التي حازت الشهرة...".**

إن كانت في هذا التنبيه تحاول إيهامنا، بأنها سوف تقدم سيرة المجنون كاملة، أي كراوية لهذه السيرة كما يعرفها القارئ، ومما اتفقت عليه جميع الروايات، وبذلك يمكنها نفي اتهامها بالتجاوز مسبقاً؛ إلا أنها قررت، وعن سبق إصرار، أن تكون هذه الأسطورة أسطورتها الخاصة، لذلك رأت في "**المجنون**" القصيدة نفسها، ورأت في "**ليلى/المحبوبة**" مجرد كائن سلبي، تُسر بأسرارها للشمعة وتسألها عن لون حداد الدخان المتلاشي الذي يزاحم قلب المجنون، وتناجي الفراشة الليلية، وتسألها عن النبض الخفي، أو تطلب من السحابة أن تبتعد بمطرها، ليزداد لهيب المحب ولهيب قلبها، ولتتحد معه وعن بُعد في شعلة واحدة، دون أن تجرؤ على مجرد الإعلان عن حبها لقيس، مكتفية بالتنهدات:

**وللسحابة التي تمتص تنهداتنا**
**أتضرع إليها أن تبتعد عن المطر**
**وتُحوّل بقايا لهيبنا إلى نار متقدة**
**في شعلة واحدة.**

لكن لا المحب يصل حبيبته، ولا الحبيبة تتمرد على قيود القبيلة، ولا يبقى للمجنون سوى أن يناجي جبل "التوباد"، الذي جمعته الشاعرة هنا مع جبال النعمان:

**... يا جبال النعمان**
**التي تحتضن قبائلنا**

**دعي الرياح تأتينا**

**بأصداء أصواتها...**

رغم كل هذا، يبقى المجنون أسير **الحب/القصيدة**، يروي عطشه من ماء يفتقده ولا يراه إلا / **في نبع الطيف الذي لا يجف**/، ويعيش زاهداً في كل شيء، ولا يرغب إلا في رسم وجه الحبيبة "**ليلى**" على رمال متحركة، سرعان ما تأتي الرياح لتذروها، فتضيع تاركة إياه في متاهته:

**سوف أعيش من اللاشيء**

**وبخطوط كفي**

**أرسم وجهها**

**في الرمال.**

ويبقى المجنون طريداً في الفلاة، تحرسه الوحوش والغزلان، معانقاً اللاشيء، ومتقلباً على سرير من نار:

"**فلا المدى المظلم**

**ولا ضوء النجوم الفاتر**

**يمكنه أن يطفئ الروح المضيئة...**".

ويظل يواصل الحياة، على ذكريات تُغذي روحه وتُبقيه على قيد الحياة، إن هذه الصورة تكاد تعكس حياة الشاعرة، التي ترفض أيضاً قيم عالمها المادي، وتحاول أن تطابقها مع حياة "**المجنون**"، فكل أشعارها السابقة على كتابتها لأسطورة "**مجنون ليلى**"، تغلفها هذه الرؤية الرافضة للواقع المادي المتغلغل في ماديته، بحثاً عن عالم أسمى، من الحب الصافي النقي، لذلك فإنها وجدت هذا الواقع/ الحلم في هذه الأسطورة العذرية العربية:

**"ليس سراباً ذلك الجَمَال**

**الذي يحفظ الحب في الصحراء..."**

وتستمر الأسطورة بين "**مجنون ليلى**" و"**مجنون كلارا خانيس**"، فهـي تضفِّر أسطورتها الخاصة، معتمدة على نصوص متعددة، حتى تتمكن مـن التجول في هذه الأسطورة بحرية، وتضع عليها بصماتها الخاصة، لـذلك فإن القارئ يجد من التطابق والاختلاف ما قد يُحيِّره، إلا أن كلارا خانيس في أسطورة مجنونها، تعتمد على أن التواصل هنا، هو تواصل بينها وبين قارئ، سوف يتقبل منها نسيجها الخاص، أو رؤيتها الخاصة لهذه القصة.

في النهاية لن تكون هذه الرواية الجديدة لأسطورة مجنون ليلى، سوى رواية خاصة جداً بالشاعرة، تعكس رؤيتها لعالم متكامل، كانت تـود لـو عاشته بكل ما فيه من مأساوية، لأنها تعيش مأساوية أشد وأعظم، مأساوية إنكار روحانية الحب العذري في عالمنا المعاصر.

في مجال الإبداع السردي، قدَّمت "**كلارا خانيس**" خمس روايات مـن أهمها: "**خيول الحلم**"، و"**رجل عدن**"، وتلك الأخيرة استوحتها مـن رحلـة حقيقية قامت بها إلى اليمن قبل سنوات، بدعوة من جامعة صنعاء لحضور اللقاء الشعري العربي الإسباني الأول، والذي لم يتكرر بالرغم من مردوده الجيد، والذي جمع مجموعة كبيرة من أبرز الأصوات الشعرية في إسبانيا والعالم العربي، وهذه الرواية ربما كانت أبرز مثال على الجهد المضـني، الذي يبذله الغرب في محاولاته فهم أوضاعنا، وهي محـاولات جـادة، لا يجب أن نتغاضى عنها لمجرد أن هناك، في ذلك الغرب مـن يحـاول أن يستخدم هذا الفهم ليشوهنا أو ينال منا، كما يحاول بعض المتعصبين منـا ضد كل ما هو غربي.

في روايتها "**رجل عدن**" لم تبتعد كثيراً عن عالمها الذي ابتدعته في أسطورة "**المجنون**"، بل إنها استعادت شخصية "**قيس**" ليكون رفيقها خلال هذه الرحلة الجديدة في مجال الإبداع. في هذه الرواية تعكس "**كلارا خانيس**" رؤيتها، من خلال إحدى المشاركات في اللقاء الشعري العربي الإسباني، الحياة في اليمن التي يعيش فيها الإنسانُ مستخدماً أحدث أدوات التكنولوجيا، مع احتفاظه بعاداته وتقاليده التي تعود إلى قرون مضت، مما يجعل اللقاء بين الكاتبة وزملائها من المبدعين العرب، لقاءً بين الحضارتين الغربية والشرقية، لقاء له مذاق خاص، يدفع ببطلة الرواية "المرأة الأوروبية، ذات العيون الزرقاء والحاسرة الرأس" إلى الغور في أعماق المدن اليمنية التي زارتها، وبشكل خاص صنعاء وعدن، لأنهما مدينتان تدعوان إلى المغامرة، وتجد أول خيط سري يجذبها إلى تلك الحياة في "صبية الخبز" التي تحمل طبقها، متجولة في شوارع صنعاء، وتحاول البطلة أن تتبعها لعلها تستطيع أن تقيم معها تفاهماً، يسمح لها بدخول "**الحريم**" المتخيل في عقلها الغربي، والذي لا تعرف عنه سوى ما طالعته في "**ألف ليلة وليلة**" والأفلام السينمائية الغربية، التي كان اليمن مسرحاً لتصوير بعضها، وما تقرأه من كتابات، انتشرت في الغرب مؤخراً، حول وضع المرأة العربية، وما سمعته من حكايات لأشخاص، يدَّعون أنهم زاروا بلادنا واطلعوا على أسرارها.

ولكن افتقاد لغة الحوار مع صبية الخبز، لم يُمَكِّن البطلة من اختراق الحاجز اللامرئي، فظلت على حدود المعرفة بالمجتمع الأنثوي المغلق على نفسه في اليمن، عندها قررت أن تلجأ إلى المثقفين العرب الذين تختلط بهم في الفندق، رغم أن حب استطلاعها لم يجد تشجيعاً من جانب زملائها من الجانب الإسباني، وكأن حالة من التوجس تلبستهم جميعاً، وتدفع بهم باتجاه

الإبقاء على الحاجز بين الثقافتين، بدلاً من التوصل إلى تخطي هذا الحاجز الوهمي، فكانوا – أي الإسبان – يتجنبون الاختلاط بزملائهم من المثقفين العرب، الذين يشاركونهم اللقاءات الثقافية، وحتى في الفنادق وطاولات الطعام، فتقرر المغامرة وحدها.

يُعَرِّضها هذا البحث عن "المعرفة" للمجتمع العربي، إلى أن تصبح محط أنظار عيون الرجال العرب، من الشعراء والنقاد المشاركين في اللقاء الشعري، دون أن تنتبه إلى أن "المثقف" العربي أكثر تردداً من "صبية الخبز"، بل إن مرض هذا المثقف العربي المتمثل في "ازدواجيته" أو "فصامه" قد يُعَرِّض محاولاتها تلك لخطر حقيقي.

وتحدث الواقعة، فقد اعتقد أحد المثقفين العرب خطأ، أن نظرتها البريئة الباحثة عن تواصل حقيقي، ما هي إلا دعوة له لممارسة حقه كرجل، في إجبار المرأة على تحقيق رغباته، فكانت الصدمة الأولى للأوروبية ذات العيون الزرقاء، حاسرة الرأس، التي لا تفهم العلاقة الخفية بين الرجل والمرأة في الشرق، وكان الاغتصاب غير المبرر التجربة القاسية التي تصيبها في الصميم.

لكن هذه الصدمة لم تُبعدها عن محاولاتها فهم واقع هذا المجتمع، خاصة وضع الأنثى فيه، وتظل صبية الخبز شبحاً يطاردها، ويتحول هاجس المعرفة إلى هاجس مزدوج: البحث في أسباب ما تعرضت له بلا مبرر مقبول عقلياً، حسب رأيها، ومحاولة التوصل إلى سر انجذابها إلى الأنثى اليمنية بكل ما يعنيه وضعها من تناقض، مع مفهومها هي كغربية للحياة.

شاء حظها أن تلتقي "**قيس**" أو "**رجل عدن**" اليمني الرقيق، الذي عاملها بالرقة التي تستحق، وربما اختارت هذا الاسم لاستعادة انجذابها إلى

"**قيس**"، مجنون ليلى، الذي ناصرته إبداعياً في كتابها "**ديوان حجر النـــار**"، الذي أشرنا إليه في بداية هذه المقدمة. فكان عشقها للأماكن التي تجولــت فيها، في صنعاء، وتعز، وعدن، وحضرموت، إلى جانب اليمني المحــب، عزاءً لها، لدرجة أنها كانت خلال الرواية كلها، تحاول أن تتأمــل الحيــاة المحيطة بها في هذه الرحلة الثرية، التي يمكن أن تصلح دليلاً "**ثقافياً**" لأي غربي يحاول فهم طبيعة تلك الأرض وناسها.

رغم جرحها الذي بقيت آثاره واضحة على الجسد المعذب، فإنها لــم تتوقف عن مواصلة محاولاتها في البحث عن المعرفة الثقافية التي أيقظتها اليمن في داخلها، فقد ظلت تطلق التساؤلات تلو التساؤلات، ولا عزاء لها سوى ما تتلقاه من شعور بالانجذاب والمحبة من جانب "**قــيس**" أو "**رجــل عدن**"، شعور زاد من رغبتها في أن تكون "المرأة العربية، المحجبة" وهو ما يدفعها نحو التعمق في كل ما يأخذها في هذا الاتجاه، ويساعدها علــى تخطي البرزخ الفاصل، بينها وبين نساء تلك الحضارة العريقة.

خلال ذلك، تحاول التخلص من الآثار المعذبة بــالتحليق فــي خيــال الانتقام، الانتقام من ذلك الذي سبب لها جرحاً بلا سبب، بدلاً من مساعدتها على التَّعرُّف على مفاتيح مجتمعه، وحتى عندما تتخيل لحظة الانتقام، فإنها تجد نفسها مشفقة على ضحيتها، أو الأصح قاتلها هي، لأنه تسبب في دفعها إلى الانتقام، ولكنه الانتقام الناتج عن البحث عن الحقيقة، حتى لو تم اللجوء إلى إراقة الدماء من أجل ذلك.

لم يغب عن البطلة "**الأوروبية ذات العيون الزرقاء**" أن تستشف كل ما هو روحي، من خلال كل المشاهد التي تمر بها: الساحل والمساجد والمآذن والقباب والنخيل، وحتى بقايا النهر والبركان. مشاهد تختلط بالبشر الــذين يعيشون فيها، تمنح المغامرة بريقاً يدفع إلى تخطي حاجز الثقــافي، حتــى

تغمر يديها بمياه المحيط الهندي، على الساحل الذهبي، في ليلة درجة حرارتها 47.

خلال مغامرتها، لا تحاول "**كلارا خانيس**" أن تنسى التأكيد على استعدادها أن تكون مثل المرأة اليمنية، ولكن دون أن تُسلِّم بقيادة الرجل بلا مقابل، فالمرأة هناك تقوم بدورها، في إضفاء اللذة على حياة الرجال، راضية بقدرها كأَمَة مملوكة لسيد واحد، ما أن تصبح ملكه حتى يخبئها عن الأعين، ولكن هذه الأوروبية المُعجبة، تريد أن تلعب هذا الدور ولكن بشكل مختلف، فإذا كانت اليمنية تعجن العجين، وتصنع الخبز، كجزء من طقس يومي يفرضه عليها وضعها كمملوكة للغير، فهي تريد أن تقوم بالشيء نفسه: تعجن العجين وتخبز الخبز، ولكنها تريد أن تقدمه إلى من تحب، تماماً كما تُقدِّم "أعظم كنز" في الوجود، أي في إطار تأكيد وجودها الخاص، لا نفيه.

خلال الرواية نجد الكاتبة "**كلارا خانيس**" تُوجِّه كل طاقتها، للعثور على مفاتيح العلاقة مع هذا المجتمع، الذي تعيش فيه، تلك التجربة المؤلمة والجميلة في آن، علها تستطيع أن تُرضي هذا الرجل الذي أعجبها، وتجذبه إليها.

كل هذه الأحداث، تقدمها لنا الكاتبة من خلال قالب روائي أقرب إلى الشعر في لغته، بل إنه في أجزاء كثيرة، تُشكِّل مقاطع الرواية، قصائد حقيقية، يمكن اقتطاعها وقراءتها بعيداً عن سياقها، ولكن عند إعادتها إلى سياقها تظل تُشكِّل جزءاً من التسلسل الحدثي للرواية، بل وتُضفي عليه مسحة صوفية تُعمِّقه، وتزيده كثافة، وتفتح له آفاقاً جديدة، وهذه التقنية متأثرة ولا شك بالثقافة العميقة للكاتبة في هذا المجال، ويمكن وصف هذه الرواية أيضاً بأنها "**رواية شعرية**"، وأجزاؤها ليست سوى "**قصائد**" تُشَكِّل وتصف حدثاً روائياً.

لكن، يجب علينا التأكيد من جديد، على أن هذه الرواية تُشكّل- في رأينا- جزءاً من محاولات كثيرة لفهم الواقع العربي المعاصر، وعلاقاته الاجتماعية المتشابكة، التي يُغلّفها الغموض بالنسبة للغربي، خاصة في ظل الوضع الراهن، الذي يستغله أعداؤنا لتشويه صورتنا، فقد استخدمت الكاتبة المجتمع اليمني، ليكون نموذجها، الذي أُتيح لها التّعرُّف عليه، لتقدم رؤيتها للعالم الأوسع والأرحب، وهو العالم العربي، ومهما كان اختلافنا مع تلك الرؤية، فيجب أن نتعامل معها بشكل عقلاني، ونحاول أن ننطلق منها، لنقيم حواراً مع ذلك المجتمع الذي جاءت منه، لعلنا نستطيع أن نوضح ما انغلق عليها، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الرواية ليست سوى "**عمل أدبي**"، ولهذا الفن ضروراته الفنية المفروضة على المبدع.

**د.طلعت شاهين**

# رجــل عــدن

## والسيدة ذات العيون الزرقاء

**حيث آخيت وجهي مع العشب.**

"أدونيس"



-1-

أحنيت رأسي إلى الأمام والتقطت المشط ووضعته في شعري ببطء. ينزلق على صدري ثقل كل تلك القطع الفضية، المربعات الصغيرة المنقوشة، والمعينات المطهرة بالنار، والدوائر، والكرات الصغيرة، التي تُصدر رنيناً عند تصادمها كما لو كانت جلاجل، والتي تُشكِّل مع الفصوص شريطاً عريضاً، كما لو كانت يداً ضاغطة. قال "أمل": "أنت عروس صنعاء"، واقترب ليقبلني، تفاديته بمهارة، وجمعت زينتي، ومنحت الصبي الواقف خلف الطاولة، ورقة نقدية، وبقيت بعدها للحظات أتأمل الحائط المليء بالحلي، وأقراط العنبر، والدلايات والأحزمة المعدنية، والأحجبة... ابتعد "أمل" فيما رحت أتمهل بين دكاكين القماش. ظللت أتجول لبعض الوقت، تحت شمس الصباح الخفيفة، إلى أن شاهدت صبية تتأملني في أحد التقاطعات: يلف حواف جسدها ندى غامض، جسدها رقيق وخفيف الحركة، ترتدي السواد، عدا ما ظهر من سراويل زرقاء تبرز من تحت أسفل الفستان الطويل. رأسها حاسر، لكنه مُغطى بمنديل وشال، يُتَوِّجه طبق مستدير من خوص النخيل، مليء بالخبز. عندما ركزت عليها عيني، انطلقتْ هابطةً بين دكاكين الفواكه والعطارة، تتبعت خطواتها، دون أن أسيطر على اندفاعي، انعكست على شبكية عيني للحظات ألوان أكوام التمر اللامعة، والزبيب الصغير الشاحب، وبياض الثوم، وبقع أكياس البن الغامقة، والسمسم، والقرفة والكسبرة، والجلجلان، وأحمر الشطة المفاجئ، وبرتقالي الزعفران.

الصبية التي تُواصل سيرها أمامي، على مسافة ثلاثـــة أمتـــار، استدارت ونظرت إليّ من جديد، ثم واصلت بعدها سيرها بحركتهـــا الخفيفة، جذبني للحظات اللمعان الذهبي لأطبـــاق ميـــزان نحاســـي تنعكس عليها جميع ألوان المحيط الضبابية، أوقفنـــي ذلـــك الســـحر، وعندما حاولت استعادة وجهة عيني نحو الأمام كانـــت الصـــبية قـــد اختفت، واصلت سيري، متغاضية عن أشكال صبايا أُخريات يمـــلأن الشارع، وتوقفت في تقاطع حيث كانت خمس أو ست مـــن الصـــبايا يلعبن، كلهن بملابس سوداء، أو زرقاء قاتمة، مع بعـــض الرســـوم الملونة، أو مطبوعة بزهور صغيرة. تَصنَّعتُ النظر إلى زجاجـــات العطور لأتأملهن: يتقافزن حسب الدور متتبعات رسماً على الأرض. فيما كانت هناك صبيتان تتحادثان في مدخل أحد البيـــوت. وحينهـــا، شاهدت الأجزاء الزرقاء القليلة البارزة، الظـــاهرة مـــن الســـراويل التحتية للصبية، التي توليني ظهرها: لقد كانت هي، والتي استدارت، كما لو كانت قد تنبهت إلى وجودي، ركَّزت عينيها علـــيّ، وَدَّعـــت صديقتها وابتعدت، ولم أستطع أنا التخلي عن تحديها، تحدي نظرتها.

-2-

كنا في البهو، "عباس" ينظر إليّ وكذلك "أمل" و"محمد" و"قاسم"، فأنا الأجنبية، أنا ذات العينين الزرقاوين، إنه رجل عدن، الذي نظرت إليه أنا بتركيز، وهو لا ينظر إليّ، يتحدث إلى صديقه وإلى "نبيلـــة"،

فتاة سورية سمراء، حاسرة الرأس. فكرت ألا اقترب من رجل عدن لأنه لا ينظر إليّ، بالرغم من أنني أعرف أن الآخرين يفعلون ذلك، لأنني توجهت نحوهم دون أن أنتبه إلى أن هذا يعني السماح لهم بذلك. تواصل هذا التيار وبتأجج، فكان السماح بالحوار: إنهم يحادثونني. يغازلونني بطريقتهم في كل كلمة، تلميحات "أمل"، وهزل "عباس"، وغطرسة "محمد". صحيح أنهم ليسوا من هنا، إنهم لبنانيون وأردنيون ومصريون، إنهم رجال خبروا الدنيا، وأكثر انفتاحاً، ويتحدثون لغات أوروبية. ومن المؤكد أن النار انفتحت لهذا السبب، الآخرون، رجال اليمن والإمارات، كانوا كمن يعيش في عالم آخر.

إلا أنه، خلال الاجتماعات، عندما يحتل كل واحد مكانه ولا تكون هناك إمكانية للحركة، يتجرءون جميعاً على النظر إليّ، فأشعر بعيون خمسين رجلاً كما لو كانت عيناً واحدة متعددة، عين مقعرة، ومتقاربة، مُركّزة على نقطة واحدة: أنا، ذات العينين الزرقاوين (أما "ثيليا" المترجمة فهم لا يرونها خلال الاجتماعات)، أشعر أنهم يروون عطشهم مني، ومدفوعة بعطشهم الدائم، أنظر إليهم جميعاً، إلى الأردنيين واللبنانيين والعراقيين والمصريين، وأيضاً إلى رجال الإمارات ورجال اليمن. وأستمع إليهم، أستمع إليهم باهتمام شديد، لأنهم يتحدثون جميعهم بشكل عام بلغتهم، ويجب عليّ أن أخمن معنى كلامهم من خلال الأصوات وإيقاعاتها المعبِّرة. لذلك فصلت عنهم رجل عدن منذ البداية، كلماته كانت تبدو كما لو تستعيد الجذور، وتقف بعيدة عن كلمات الآخرين، دون رغبة في فرض نفسها، دون

تحديد، ولكنها واضحة كشرخ من الضوء في منطقة مظللة. كلماته تحمل تقاسيم وجهه، المختلف عن تلك الوجوه القادمة من الصحراء، على تقاسيمها جمال طبيعي، ورقة، إضافة إلى أنه يتحدث أكثر، كما لو كان تحت حماية قانون خاص، فريد. يتحدث عن أرضه البركانية، عن العمارة هناك. ربما لهذا، كان يتحدث عن شيء يعرفه من الداخل، من فوهة البركان، ويفعل ذلك من أعماق الكينونة. يعرف أكثر، لأن البركان لا يزال يحتفظ بأسرار معرفة النار رغم أنه خامد.

-3-

تُشع بيوت صنعاء في الليل بألوان متعددة تنبع من نوافذها المزججة كما لو كانت كوات للزينة. فالحوائط الثابتة الرقيقة المصنوعة من الحجر أو الطوب الوردي أو الذهبي تقف بثبات القرون الوسطى وتحافظ على هذه الزينة، وإطاراتها مغروسة حوافيها في القوس، أو في أجزاء أفقية، تحدد نهايات الشرفات المتراصة على مستويات مختلفة تتعدد بتعدد الطوابق. الشرفات لمتعة الرجال: هناك يتناقشون ويمضغون "القات"، فيما النساء يجتمعن في الطابق الأول، في الديوان، وحتى لا يشاهدهن أحد، يستخدمن سلماً خاصاً. نعم، حتى لا يُرَوْن، ولكنهن يَرِين من خلف الخمار. لقد تأكدت من ذلك، أنا لدي ثلاثة من تلك الخمارات، لدي الحرير الموشى، والدمشقي، والعقود والأساور، والأقراط وأمشاط الشعر،

وأيضاً لدي الخنجر، أعني "الجنبية"[1]، وعود الند، وعنبر رمـــادي، وبخور، والصبر، وأوراق القات، ولدي الآن حزَمٌ كبيرة من بـــراعم الياسمين أحملها في كيس فتُعطّر الطريق بينما نغادر سوق الملح. لا أذكر إن كان "محمد" أم "عباس" الذي كان يرافقني، يُركّز نظره على الياسمين وعلى خفة الحركة التي تدفع بها خطواتي. فجـــأة، أشـــعر بضربة حادة على ظهري، وشيء صلب يسقط منزلقاً على فســـتاني. "ماذا حدث؟" سألت، تجاهل "محمد" و"عباس" سؤالي، أستدير فـــأرى على البعد بعض الأطفال. أقول: "لقد قذفوني بحجر"، يبدو أنهمـــا لا يسمعانني، واصلا حديثهما دون أدنى اهتمام بكلماتي. يتحدث "محمد" باعتداد يدفعني إلى الضحك: "بطانة سقف الجـــامع الكبيـــر [2] فـــي صنعاء تُعتبر أحد أقدم كنوز الفن الإسلامي، وأسقف رواقه الشـــرقي تعود إلى القرن التاسع. الإعجاب بالمعمار المكعب، يعود إلى عهـــد الرسول (ﷺ)..."، أنا بعيدة عنهما، مسجونة في إحساس واحـــد: أنـــا متفرجة على هذه الحياة رغم أنفي، حتى لو دخنت النرجيلة، حتى لو مضغت الحشائش، أو شربت "القشر" [3].

-4-

طلب مني "أمل" كتاباً فأقوم لآتي به، عندها تشير "نبيلة" إليّ من الطاولة التي تجلس إليها. أقترب دون أن أنتبه إلى مـــن يجالســـونها،

(1) الجنبية: الخنجر التقليدي الذي يتمنطقـــه اليمنيـــون فـــي أحزمـــة ملفوفـــة إلى وسطهم – (المترجم).
(2) الجامع الكبير: بناه معد بن جبل في حياة الرسول (ﷺ) – (المترجم).
(3) مشروب يصنع من منقوع قشر البن– (المترجم).

تُجلسني إلى جوارها وتحدثني عن رحلة اليوم التالي. انتبهت فجـأة: كان "علي" أمامي، شاب من صنعاء، ورجل عدن الذي ينظـر إلـيّ ببؤس. أقول لـ"نبيلة": "قولي له، إن محاضرته كانت رائعة"، عندها توجه هو إليّ بالحديث بالفرنسية. سأل إن كنت سأذهب في الرحلـة، أقول نعم، يقول إنه يحب التحدث معي غداً، خلال الرحلـة. أقـول: "بالطبع"، وأقف. ويقف هو. "معذرة لا أعرف اسمك؟"، "قيس، قيس، وأنا سعيد بالتعرف عليك، إلى اللقاء غداً"، لكنه تبعني عبـر البهـو وعندما أصل إلى المصاعد، ينظر إليّ كما لو كان لا يستطيع الابتعاد عني، كما لو أنه بابتعاده، سيعاني افتقاد شيء لا أمل في استعادته. لا أعرف كيف أنظر إليه، لكنني أكرر بحزم: "إلى اللقاء غداً"، وأدخـل المصعد وحدي. لقد أوقفته عند هذا الحد.

-5-

كنت قد فقدت كل أثر لـ"أمل"، لأنني كنت أتتبع تلك العيون التي تحملني إلى شارع جانبي، باتجاه منطقة تجارة الأخشاب، التي يخـف مرور الناس فيها. وإن كانت لا تزال روائح العطارة تتداخل بروائح الأخشاب والنشارة. دخلت الصبية إلى أحد البيوت فيما وقفت أنا أمام شباك، على هيئة قوسين يلتقيان في المنتصف بينهما، ويحـيط بهمـا إطار مزخرف على هيئة مشربية مستندة إلى الحائط. خشبه طبيعـي لم تلمسه يد، لون الخشب ناصع والنقوش دقيقة جداً، ظهرت الصـبية بعد قليل والطبق الذي على رأسها فارغ، التقت نظراتنا مرة أخـرى ومرة أخرى انطلقت في سيرها وأنا خلفها. ابتعدنا شيئاً فشـيئاً عـن

منطقة السوق المزدحمة، وبعد أن تركنا الشوارع الضيقة وصلنا إلى شارع عريض يبدو أنه طريق، من ناحية كانت هناك قطعـان شـياه بيضاء بالكامل، ولكن رؤوسها سوداء، من الناحيـة الأخـرى تبـدأ أماكن بيع الخضراوات التي تتراص في طابور لا ينتهي. وفجأة كنـا في باب اليمن.

توقفت الصبية إلى جوار بائعات الخبـز، متشـحات، بعضـهن يرتدين الأسـود الموشـى بـبعض الألـوان الحمـراء والبيضـاء "المُغْمَق"[4]، ينزلق مستطيل حريري علـى وجـوههن، وأُخريـات متشحات بقماش هندي متعدد الألوان، سَلَّمتْ الصبية الطبق الفـارغ. عادت نظرتها تنغرس في نظرتي. رغبة عارمة ظلت تدفعني خلفها.

تمر الآن عبر باب اليمن وتمرق عبر شارع صـغير حيـث لا توجد أماكن للباعة ولا حوانيت، لا تمر دقيقة، دون أن تستدير نحوي مرة أخرى، هيئتها تبدو وحيدة في الشارع متفوقة على أي صـورة أخرى لا علاقة بها: التراب الذي يتراكم على نعلهـا، والأصـوات المحيطة بها تكاد لا تترك أثراً. وأخيراً عندما اختفـت عبـر أحـد الأبواب، وشاهدتها بعد قليل تطل من إحـدى النوافـذ، مـن خلـف المشربية ولا تزال تتطلع إليّ بوجه صامت، عرفت أنني لا أسـتطيع أن أخطو خطوة أخرى أكثر من هذا. لا أستطيع عبور هذا الحد، ولن أستطيع عبوره أبداً. انتابني قلق مجهد تركني غير قادرة على التقاط أنفاسي، هزمتني الغرابة، والبعاد المستحيل. ما معنى أن أكون فـي هذا المكان، المشي في تلك الشوارع، مشاهدة تلـك الحيـاة التـي لا

(4) الخمار باللهجة اليمنية– (المترجم).

أستطيع المشاركة فيها أبداً؟، الصبية ستكون هنـــاك دائمـــاً، خلـــف مشربية، في بيت مُحرم، لا طريق للدخول إليه. أنا لن أكـــون أبـــداً عروس صنعاء.

-6-

أخذت كتاباً لـــ"أمل"، رغم أن رغبتي كانت ضد العودة إلى بهـــو الفندق، وعندما فتحت الباب في طريقي للخروج. شعرت فجأة ضغطاً على الباب. شخص ما يدفعه من الخارج، ويدفعني معه، يدخل مـــن الباب ويغلقه. ثانية بعدها أشعر أني ملتصقة بالحائط وعينـــا "أمـــل" مركَّزتان عليّ. تكبلني يداه، "ماذا تفعل؟"، أقول، وأهرب منه، لكنـــه يمسك بي. أشعر بذراعيه القويتين تحاصراني، رأسه، شفتاه انطبقتـــا على شفتي ولسانه يفتح طريقه بين أسناني بعنف. لا أفهم ما يحـــدث، تنغرس أصابعه بين ضلوعي، بطنه تسحقني، تخنقنـــي. لا أســـتطيع التحرك، رغم محاولات الهرب. أتمكن من تحريري من فمه. "أمـــل، ماذا تفعل؟". أكرر.

لا أكاد أفصل نفسي عنه حتى أجد شفتيه تطبقان على شفتي مـــن جديد، ويد عنيفة تمسك برسغي وتثبتهما خلف ظهري، بينمـــا اليـــد الأخرى تندفع بين فخذي. أتمكن من إبعاد شفتيه عـــن فمـــي مـــرة أخرى. أعضه، لكنه يغرس أسنانه بينما يواصل فتح طريقه، رافعـــاً طرف الفستان، ركبته تتقدم ما بين فخذي ويدفعني في الوقت نفســـه إلى أسفل، وينحدر معي على الأرض. أشعر بحرارة رطبة تمر عبر

صدري بين الجسد والفستان، وثقل جسده في ركبتي ويعريني بجذبة واحدة، يتحرر اللحم وتتقدم يده في العانة، بينما الأخرى تواصل إمساكي من رسغي. وفجأة أشعر بعضوه هناك عصبياً وناعماً، يلامسني باحثاً عن طريقه بين العشب داخلاً إلى العمق. تذبل قوة رسغي للحظات بينما يواصل ضغطه على جسدي في الأرض. لا أزال أقاوم، أُحرِّر ذراعي وأضربه بقبضتي. يعتدل مغروساً في بطني. يسحب الفستان بكلتا يديه، يسحبه كله حتى يقفز ثدياي العاريان ويعضهما هو، ويعود إلى تغطية جسدي بالكامل، الفم، الكتفين، ورأسه على رأسي. ويحتضنني بقوة وحشية فأشعر بالدوار. أفتح بعدها عيني فيما كان ينظر هو إليّ مبتهجاً. يعود إلى الإطباق عليّ مرة ثم مرة أخرى. ينقلب الحر والاختناق إلى عرق. الكليتان تبدوان كحفرتين عميقتين، الجسد كله ممزق، يخر أمام تيار داخلي. يميل العنق، تصعد حشرجة إلى الصدر ويتملك الظهر انفصام حلزوني، كما لو كان انفصام الحبل الممسك بالعمود الفقري. تصطدم الرأس بالحائط مدفوعة بحركة المقاومة، أرتعش. يعتصر ثديي بيديه، ويسحبني من كل جسدي. يزداد ارتعاشي فيما يخفف هو من حدته، إلى أن تهمد حركتي دون أن يتركني. أرتعش برغم الانحباس. يقف هو بعدها على قدميه، تعرى، يأخذني بين ذراعيه ويدخل معي تحت الدش. يسقط تيار الماء قوياً لبعض الوقت، البرد الذي يخمد الجلد، يغرق الشعر، يعيد الهدوء إلى اللحم. عندما أخرج أشاهد في المرآة أن كتفي وصدري مغطى بأشكال أرجوانية. أبحث عن عيني "أمل" المنعكستين. تبتسمان، لا أقول شيئاً. يضعني هو بعد ذلك في السرير.

زينتي ملقاة على الطاولة، والفساتين، والبخور، وبــتلات الياســمين. يلتقط خماراً ويلقيه على وجهي.

-7-

أسير مع "فيلكس"، مرة أخرى، في السوق. يؤلمني الجسد، لــم تكن لديّ القدرة على الذهاب في الرحلة. معارض العطارة من جديد، والمناديل والتين والفاكهة المجففة، المقاهي حيث يُعــدون الشــاي أو عصير الجوافة، ومشروبات باردة أخرى مُحرمــة علينــا جميعــاً. "فيلكس" هو الأكثر شباباً بين الإسبان وأكثرهم حديثاً معي. الآخرون يتجمعون معاً دائماً ويكادون لا يقتربون من زملائهم العرب. اقترب أنا، قال إنهم يحيطون بي، وأنا أحيطهم بعيني.

بينما كنا نتمشى، اكتشفنا فناءً مستطيلاً توجــد فيــه طــاولات، وأشياء معدة للشرب. وفتى أعمى يعزف على العود ويغني أغنيــات تبدو قديمة جداً، ولا أحد غيره هناك، جلست هناك متتبعة النغمــات الموسيقية، فأدخل في الهدوء. تقطع الموسيقى، من وقت لآخر، جلبة لهب سريع بارتفاع متر، لأن هناك رجلاً يُعد النار، والفحم، استعداداً للشواء. بدائي جداً ويلعب بالنار لجذب الانتباه، وإبعادنا عن الانتبــاه للموسيقى. أو ربما ليبيّن لنا ببساطة قوة تلك النار والــدخان النــاتج عنها، وأهمية عمله، وأنه جزء من عمل سحري. سرعان ما تفــوح رائحة اللحم المشوي فنأكل قطعاً ساخنة جافة قليلاً لكنها لذيذة جــداً،

فيما يواصل الصوت المشروخ تتبع نغمات العود. أدخل في تلك النغمات الشرقية، وأتساءل مرة أخرى لماذا أجد نفسي فيها إلى درجة كما لو كانت مكتوبة في دمي، بل أشعر أنني أنتمي إليها أكثر من انتمائي إلى الموسيقى الغربية. وأسأل نفسي أيضاً لماذا عندما أتجول في السوق، أشعر من جديد بالمسافة التي لا يمكن عبورها، ذلك الإحساس بأن شيئاً يفرّق بيني وبين هذا العالم، أن أكون أنا وألا أكون واحدة منهم، أنا أكون مُراقَبة وليست مُراقِبة، ذلك الاختلاف الرهيب، إنه جحيم يفصلني عن النساء المحجبات، يدفعني إلى عدم قبول الحجاب، رغم رغبتي فيه، لأنه لا يجعلني أكشف عيني فقط بل الوجه كله، والجسد.

-8-

يؤلمني كتفاي، الصدر، والضلوع، ولا تفارقني عينا "أمل" اللتين أراهما من تحت الخمار، مثبتتين عليّ لفترة طويلة، تتنقلان من الابتسامة إلى الشعور بالندم الكامل. وأنا ظللت ساكنة، دون أن أنطق بأي كلمة. ساكنة حتى بعد أن ذهب، بينما تبدد رائحة الياسمين الظلام، وتقرّب بياض عقود الأعراس. لا، لن أكون أبداً عروس صنعاء، لكن ربما أعرف الآن شيئاً، أعرف نمط وإحساس الرجال الذين يعتقدون أنهم سادة، يأخذون ما يريدون، ويختمونه بعلاماتهم، وبعدها يحجبونه، يخفونه عن الآخرين.

-9-

من خلف المشربية، عينا صبية الطبق لا تزالان تتابعان النظـــر إليّ، كنا قد وصلنا إلى هذا المكان الوحيد بعد أن درنا حول المسجد. كان ميداناً مستطيلاً، وهنـــاك أطفـــال صـــغار يرتـــدون بـــرانيس (القرقوش) حريرية ويجرجرون علباً صفيحية مربوطة فـــي خـــيط. وأرجوحة معلقة في أحد الأبواب، وعليها صبية، في الثانيـــة عشـــرة من عمرها تقريباً، مغطاة الرأس، وإن كانـــت عيناهـــا مكشـــوفتين، تمسك بالحبال في حركة ذهاباً وإياباً. في تقدمها ينفتح الأسود تاركـــاً في العراء فستاناً طويلاً من الستان المفضض، وحذاءً مزخرفاً. وفي الحركة التالية تبرز كرانيش الفستان السفلية بشكل ظـــاهر، وأخيـــراً يمكن تخيل أنه تحت القماش اللامع، هناك بطن ممتلئ: كانت حاملاً. في كل مرة تبدأ فيها الارتفاع بالجسد، ترفع الرأس بعينين مرتعبتين. لا شك أن هذا بسبب وجودي، فقد قفزت من الأرجوحة(5) واختبـــأت. توقفت صبية الطبق حينها وركّزت عينيها عليّ للحظات طويلة. إلى أين لا تزال تريد أن تأخذني؟

-10-

يحييني "أمل" من بعيد. أجيب على تحيته. لا يظهـــر أي شـــيء خفي، يدخل "عباس" البهو ويجلس إلى جواري. يقص عليّ الرحلـــة:

(5) الأرجوحة: "المدرهة" بلهجة صنعاء، و"الدرهينة" بلهجة تعز.

يوم كامل في الأتوبيس ليتوقف بعدها للحظات لزيارة مأرب، وجبل "بلق القبلي" في "صِرْوَاح". هو، على أي حال، كان يحمل آلتي تصوير، تمكن من التقاط صور كثيرة. فهو مهتم بالدرجة الأولى باللغة المعمارية للمساجد، وقلة الزخارف فيها، وسيطرة الأشكال الهندسية التجريدية على مبانيها، وتراص الأعمدة المكونة من حجر واحد، والتي تخلو من التيجان، والعوارض الملساء، والأسطح الناعمة منذ الفترات الأولى، وتقنية الحزم، التي لا تزال باقية في مباني "معين" و"براقش". يريني كل هذا، من خلال الصورة التي التقطها بالكاميرا "بلورايد". في واحدة منها يمكن رؤية أعمدة مرتفعة جداً ومتقنة، ورائعة بتيجان موشاة: صورة تدل على العظمة. إنها "المُقَّه"[6]، واحة تقع إلى الجنوب من "مأرب"، ومَحْرم عرش "بلقيس" والأعمدة. وفي أخرى، سقف معبد "براقش"، تتعامد أشكالها الملساء المستطيلة في تشكيل متقن تبدو خلاله الأحجام المتعارضة أخف من وزنها الحقيقي: خفيفة المادة. وأيضاً في مدخل "مقام العطار"، في "معين"، وحتى من خلال الصورة يمكن الإحساس بالانجذاب نحو الحجر، تركيبات معمارية مكونة من الحجر البسيط، ثقله وخفته في العنصر الغريب عند التماسك، حيث يدخل اللازمني، المعبِّر عن نقطة السرمدية. هناك، إلى جانب واحة، هيئة منفتحة، من إمكانية يتيحها الفراغ المتداعي إلى الشكل. والصمت.

لكن "عباس" يقول: "أتعرفين، لا شيء مهم، أي، لا شيء له أهمية أكثر مما لديه في الواقع"، ويضحك: "على أي حال أريد أن ألتقط لكِ صورة أيضاً"، ويبتعد قليلاً، ويلتقطها، "فيلكس" و"ثيليا"، المترجمة، يقتربان منا ويلتقط "عباس" لهما صورة أيضاً.

---

(6) إلهة يمنية، وتعني "القمر" في اللهجة اليمنية القديمة.

-11-

أعدت النظر إلى جسدي في المرآة، اللون الأرجواني الناتج عن الكدمات تحوّل إلى مزيج من الزرقة والاحمرار، ويبدو في بعض المناطق مثل هالة ذهبية. أرى في نفسي صورة للشهادة: ألوان الولع، والورع وتاج الآلام. يتملكني الهلع والألم، لم أعد أسأل نفسي لماذا حدث هذا، أعرف أن الذنب جزئياً ذنب عيني. ولكني نظرت إلى "عباس" بالطريقة نفسها وإلى "محمد" كذلك، وإلى الآخرين. وربما نظرت إلى رجال آخرين بشكل قاتل، مثل "علي"، الذين لا يتحدثون سوى العربية، وإلى من رؤوسهم معممة من ذوي الشعور المنفوشة، الذين يبدون دائماً كما لو كانوا سجناء رياح السموم، وبشرتهم أكثر دكنة، وملامحهم أكثر سرية، أولئك الذين تُكذِّب ملامحهم ملابسهم الغربية، رغم أننا نراهم دائماً بجلابيبهم وعمائمهم وكوفياتهم المثبتة بالعقالات، على ظهر جمل أو حصان، بين الكثبان أو بين النخيل. اغتسل ببطء شديد، وأمشط شعري، وأقول لنفسي إنني لن أُغيِّر نظرتي، لأنه لن يُغيِّر هو نظرته، فهي المرآة التي تشي بكل حياته، وكل تطلعاته وفرضياته، لهذا السبب فالأطفال... نعم، يتعلمون هذا منذ الصغر ويمارسون حياتهم من خلالها. وكذلك صبية طبق الخبز، وتلك التي كانت تتأرجح....

-12-

كنت أعرف قصة فتاة كانت تعيش في مكان الحريم، بصنعاء، أثيوبية. جاء بها صديق إلى البيت. انتظرتُ أن أراها، والدخول إلى

الحريم عن طريقها. عندما قلت له ذلك، رفض: "لا أعرف أين هي، إضافة إلى أن هذا سوف يعرِّضها للخطر، كل شيء يمكن تفسيره على أنه دليل على شيء". حكى لي كيف رجموا فتاة في بلاده، وذكَّرني بالقانون العراقي الذي يسمح لأي رجل في الأسرة برجم أي امرأة إذا اشتبه في خيانتها، دون أن يتعرض للعقاب، حقيقة أن هذا القانون قد أُلغي، لكن .. "لا تذهبي وحدك"، حذرني، "لو اختفيت لن يعثر عليك أحد، أبداً"، وأضاف: "طبعاً هي تتصل بي من وقت لآخر، تتصل تليفونياً، كيف تستطيع ذلك؟، وكيف تعرض نفسها للخطر بهذه الطريقة؟". قلت: "إنها قوة الحلم". فتاة زنجية، محبوسة في ديوان، بين الطنافس والوسائد الحريرية الملونة، تبحث بعينيها عن نور الجانب الآخر من المشربية، وتتذكر فتى رقيقاً، ببشرة بيضاء، وعينين سوداوين، تعرفت عليه خلال مرورها بإسبانيا. وأيضاً هو لا يزال يتذكرها، رغم رعب المغامرة، الزنجية ذات العينين المليئتين بالنور. عينان واثقتان، وفي الوقت نفسه تنهمر منهما الدموع، كقطع عملة معدنية تتمرد على مجرى النهر الذهبي.

هذا ما يتذكره بالضبط، ويتذكر جمال وجهها العجيب. ورقة تعامله معها، "كيف تعارفا؟"، "أين؟"، هذا ما أجهله. لكن من الواضح أنها استمتعت، ببعض الحرية، لبعض الوقت، وبعدها بقليل عادت إلى سجنها من جديد، لقد أعادوها إلى مكانها، إلى مكان الصرخة، تلك الصرخة التي أشعر بقدومها، كانت حباً لامرأة محجبة.

قبل ذهابي إلى السوق، بينما كنت أنتظر "فيلكس" أمـــام بـــاب الفندق شاهدت: أربعة أشكال سوداء، أربعة نساء متشحات بالســـواد الكامل هبطن من سيارة مرسيدس "ليموزين" وعبـــرن المـــدخل ثـــم البهو، في اتجاه المصاعد. وبعدها بقليل، توقفـــت ســـيارة ليمـــوزين أخرى، وأربع هيئات سوداء هبطن، وبعدها أربع هيئات أخرى، لقـــد وصل عددهن إلى اثنتي عشرة، عشرين، تجمع يتقـــدم عبـــر البهـــو الدائري. شعرت بالرعب: كن بشراً بلا ملامح، يسرن بثقة ونظـــام، كما لو كن في طريقهن إلى الحرب، لا يمكن الإحســـاس بضـــعفهن على الإطلاق. فجأة، لاحظت: إنهن ينتعلن أحذية بكعـــوب عاليـــة، وخلاخيل في الأقدام، وأساور في الرسغين. سألت حـــارس المـــدخل فشرح لي أن الأمر متعلق بعرس. وعندما عدنا من نزهتنـــا اقتـــرب مني وقال: "حضرتك، كامرأة يمكنك مشاهدته، العروس على وشـــك الدخول".

شاهدت عيوناً مزينة بالكحل، ووجنات وردية جداً، فساتين براقة وعقوداً من الياسمين، وسمعت غناءً وتصفيقاً باليدين والطبول. أتذكر امرأة محملة بالحلي، كانت تتقافز وتنظر نحوي، انتبهت لحظتها إلى أن العروس كانت قريبة مني جداً، توليني ظهرها، يســـقط شـــعرها الطليق حتى وسطها. كان فستانها فاخراً، مصنوعاً من قماش قريـــب الشبه بالقطن الخفيف "الأورجانزا"، لونه أخضر زمـــردي، مطـــرز

بكامله على هيئة كواكب ذهبية: خيوط رفيعة تتفرع إلى أفرع مزينة بالزهور، وتتزين، كالأخريات، بعقد من الياسمين، واليدان طليقتـــان، وذراعاها هابطان بطول جسدها. كانت تتقدم بـــبطء شـــديد، الوجـــه شاحب رغم الماكياج، وحزينة جداً، تقاطع الموسيقى الصرخات التي تطلقها الأخريات، والزغاريـــد الطويلـــة والمتقطعـــة، الصـــرخات المتوحشة كما في الحرب. قلت لنفسي: إنهم يأخذونها إلى المذبح، من مررن منهن بهذا الطريق يشعرن بالبهجـــة التـــي لا توصـــف، لأن واحدة أخرى ستذبح، ستشاركهن قدرهن المشترك، من هذا المـــوت تنبع الحياة: رفض سيطرتهن على أجسادهن.

-14-

كنت أجهل الصرخة، الصرخة المعمدة بالـــدم، التـــي تطلقهـــا الزغاريد قبل ليلة العرس. وكنت أجهل أيضاً الـــدم والألـــم، وقمـــة الرغبة، فقط في هذه اللحظة عرف جسدي حجم الغيرة: كـــل تلـــك العيون مُركّزة عليّ، مغروسة فيّ، مما يطلق تحركات اللحم، يدفعـــه إلى تقليد الانطلاق مثله، تنفتح كل مسام الجسد ليسمح له بالـــدخول، وفرحه الخارجي يكاد لا يكون زمن زفرة، أو حشـــرجة، لـــم تكـــن النظرة وحدها، إذن، لقد كان التيار الذي يمتد من جانب إلـــى آخـــر، من خيط إلى آخر، عبر الطاولات، خلال المحاضرات...، شيء يكاد يكون تجريدياً وواصل تحوله إلى شخصي، وخلال توجهه ازداد حدة وانحسر أيضاً.

كان الدم المراق المتأمل، الشرشف المبرقش والمعروض، انبثاق اللحم في الذبح المؤكد، الجرح المحتفى به، يغرس الرجل خنجره في العذراء ويملأ كؤوسه من الدم المراق، ليتجرع منها من لا يستطيعون استقبال الطعنة، هل للاستحمام به واستعادة الطزاجة، واللمعان، أم الاحتماء في الرائحة المرغوبة النابعة من المخفي. ما تم لمسه، على العكس تماماً، يتحول إلى أن يصبح مقموعاً، ملكًا لسيد واحد، ينفي أي حضور آخر لا يكون مُكرساً لاستخدامه الخاص، لكن في هذه الملكية الخاصة، هي تعرف شيئاً لا تعرفه المرأة غير المحجبة، لها معرفة مختلفة، الجسد مُكَّرس للذة. إضافة إلى هذا تعرف هدوء مهمتها الواضحة المحددة، وأنْ تكون واحدة إلى جانب أخريات، معفية من كل مسئولية أو مطالبة باتخاذ المبادرة، العجيب أنها تعرف حرية أخرى. غيابها عن الخارج يصنع لها حياة أيضاً، تجتمع مع الصديقات، تقطع المدينة للشراء، تمضي أمسيات كاملة في الحمامات، حيث تمارس طهارتها، تصلي، تترك جسدها كي يتمسد، يلفونها في أقمشة فضفاضة، وبعدها تأكل الحلوى، وتحكي وتستمع إلى الحكايات، تتحادث. عالم مغلق مثل هذا لا يدخله الذكر، التنافس فيه بين الجنسين معدوم، المرأة جسد فقط، والرجل يتجاهلها في المجالات الأخرى، من هذه الناحية فإن الحريم يبدو دعة ولذة، ولكن ما إن يتم الجماع، ما إن يتم إشباع الرغبة، حتى تتحول المرأة إلى

شيء مملوك..، هذا هو الذي بدأ يظهر الآن، بعد أن سمعت أنا الصرخة وجربت معناها في جسدي.

-16-

تتفتح براعم الياسمين وتفوح رائحتها أكثر من ذي قبل، يسقط العطر على أعضائي مثل يد عاشقة، جسدي المتألم يدفعني إلى البكاء، لكني أبكي في صمت، تُغرِق الرائحةُ التمزق والصرخات التي تتنازع داخلي، لتخرج، كي تطعن على الأقل المحيط الشاهد، المشهد يكاد لا يتغير، البخور، والمبخرة، والحلي لا تزال على الطاولة، والحرير والخمارات. المناخ حار، والنافذة مواربة، ومن السرير، ممتزجة بالدموع، أرى السماء مليئة بنجوم لا يستطيع لمعانها إخفاء أضواء صنعاء الخامدة، فقط عطر الزهر، يمكن مقارنته بعطر الياسمين الذي يسيطر على الفضاء. يتضاعف بكائي، أتذكر فجأة الضربة الحادة التي تلقيتها على ظهري عندما كنت أخرج هذا المساء من سوق الملح. كنت أشعر بخفة غريبة في جسدي، مدفوعة بالياسمين الذي أهدوني إياه هناك، كانت استجابة الحواس لندائه، الاستعداد للتشوق الذي تسببه رائحته. لا "محمد" ولا "عباس"، اللذان كنت أسير بينهما، انتبها، لكن من المؤكد أن أحد الصبية الذين كانوا هناك انتبه إليه، وقرر لهذا السبب أنني أستحق الرجم.

## -17-

وشاهدتُ العينين السوداوين من جديد، والشال وطبــق الســعف المملوء بالخبز، الهيئة التي كانت تدفعني باتجاه شارع مجهول، وتدفع بي إلى بوابة مجهولة. ما الأهمية التي تستحقها تلك النظرة؟.

## -18-

تجنبت "أمل"، وهو ابتعد عني أيضاً طوال النهار، ورغــم ذلــك كنت أتطلع إلى اقترابه مني وأن يقدم لي اعتذاره بطريقة ما. أعتقــد أن مثل هذه الرغبة لم تكن سوى وهم، لكن انتابني الفزع عنــدما رنّ جرس التليفون. على الجانب الآخر من الخط، كان هنــاك صــوت خجول وحزين جداً يقول: "أنا قيس"، كان حزيناً لأنني لم أنضم إلــى الرحلة، فيما سنسافر غداً، يريد أن يتحدث معي الآن، يريد أن يقــول لي شيئاً في غرفتي. أقول له: "تعال". كان من المســتحيل علــيّ ألا أستجيب لصوته: سأشرح له، سأقول له إني مريضة وإنه لا يستطيع أن يلمسني.

أجفف عيني، أنظم فرش السرير، أرتدي عباءة بيضاء وقرطين من الفضة، أمشط شعري، وللحظات أشعر بحاجة إلى وضع المشــط أيضاً، والعقود والأحجبة، أن أتدثر بحلي يمنية، أشعر أننــي محميــة

بثقلها. لكن هناك من يطرق الباب الآن، أفتحه ويدخل هـو وعلـى وجهه إحساس بالقنوط. على أية حال سيحتضنني ويقبلني، وأنا سأحتضن يديه، أضمهما بقوة، وأقول: "انتظر"، وأجلسه على السرير. بعدها أرفع كُماً فضفاضاً وأريه الذراع والكتف المليء بالكدمات. أقول: "جسدي كله يؤلمني، لا أعرف بالضبط ما السبب، ولكنه يؤلمني"، يقول: "أوه"، ويدغدغ يدي ثم يسحب يديه، يخبئهما، ويخبئ وجهه للحظات، مستديراً، بعدها أسمع صوته العميق جداً، الفريد جداً، كما لو كان خارج سيطرته، لكنه واضح التوجه، فيبدو قريباً كقربه هو: "غرفتكِ تفوح بالياسمين، إنها دعوة".

أشعر برعدة داخلية، ارتجاف، وتجري الدموع من تحت جفني. أقول: "إنه مرعب، مرعب". وينبت البكاء فيّ، كنت يائسة: يعود هو إلى مداعبة يدي بحلاوة، بينما أواصل بكائي. يظل على صمته، وأخيراً يهدئ من روعي. أقول: "إنه القدر، كما لو كان هناك دائماً سبب ما يمنع عني اللذة الكاملة"، يسأل: "هل ذهبتِ إلى الطبيب؟".

يقول لي حينها إن الياسمين يدفعه دائماً إلى الابتعاد، الاستسلام، ويتحدث بعد ذلك عن المساء الذي حضرنا فيه جلسة "القات". نعم، هذه البراعم التي تفتحت الآن هي براعم ذلك المساء، أقول له، ويتذكرني هو جالسة في الديوان بالفستان الأزرق، وعقد العنبر، ومن خلفي الشباك الضخم، ومن خلاله تظهر أشجار الليمون بثمارها الصغيرة ذات اللون الأخضر القاتم، المشرعة باتجاه السماء الشاحبة. يقول إنه يراني أتقدمه وأجذب فرعاً من الأفرع المقطوعة، التي ترقد تحت أقدامنا على الأرض، وبعدها يراقب بإمعان الرقصة التي كان

يقوم بها رجلان تماماً في الـركن الـذي كنـت فيـه، بملابسـهما المخططة، ويحزمان وسطيهما بشال من الحرير، والعمامات والأقدام العارية، وأذرعهما منثنية عند الكوع، ويد تمسك بيد الرفيق وتتركها، خلال التقدم البطيء إلى الأمام، وإلى الخلف، خلال تقاطعهما والعودة إلى الحركة الأولى بلطف، يرقصان في جانب واحـد مـن الصـالة المستطيلة الواسعة التي تُتوِّجها النارجيلة، علـى نغمـات المزمـار ودقات الطبول. أقول له إن تلك لم تكن رقصة حربية، كما هي العادة في الرقصات الشعبية لهذا البلد، حيث يسـتخدم الراقصـون حتـى "الجنبية" يشقون بها الهواء، ولم يكن كذلك الغناء الذي كـان يطلقـه المغنون المتزينون كالفتيات اليمنيات في ملابـس أميـرات القـرون الوسطى، أو الساحرات بملابسهن الحريرية. يقول: "لا أتذكر سواك".

أنا لا أتذكر رؤيته خلال ذلك المساء. آي، وضعوا النساء معـاً، وبعيداً عن الرجال، وكنت أراهن هن فقط، رفيقاتي العربيـات، كـن يخترن بلطف أوراق "القات" ويقدمنه لي بابتسامة، ويعلمننـي كيـف أختارها، كل هذا كان يتم دون أن نتبادل كلمة واحدة، بعدها أرى فتى يتقدم بقنينة ويرشنا بالعطر، وبعـدها بقليـل يمـر كـأس زجـاجي مزخرف، يمررونه من يد إلى أخرى، ومن واحد إلـى آخـر بـين الجالسين، وبه شيء يطلق دخاناً. إنه البخور، الـذي سـرعان مـا يصلني، الكأس أبيض اللون، ومثلث الشكل مسحوب، عريض جـداً عند القاعدة.

يقف "قيس" ويقترب من الطاولة التي عليها أشياء صنعاء. يمرر يده القاتمة على السطح الأملس. يعيدها، يقول: "هل لك أن تنتظريني

لحظة"، من ناحية أخرى، أطفئ أنا الأنوار وأترك فقط ذلك القوس الأبيض الذي يرسمه على الأرض، النور القادم من باب الحمام، وأفتح النافذة عن آخرها ليدخل الليل.

-19-

سيطر الهدوء عليّ. جلست أمام المرآة التي تقف على رأس الطاولة المستطيلة، ودون أن أهتم بما يفعل، وضعت في عنقي عقداً مكوناً من العملات المعدنية القديمة والقواقع، وآخر من الخرز الفضي المنتهي بحجاب مزين تتفرع منه ثلاثة أقواس صغيرة تمسك بسلاسل مزدوجة بداخلها قطعة مثلثة من الفضة أيضاً، مزينة بجلاجل صغيرة. عندما عاد "قيس"، أضع أيضاً المشط على شعر رأسي وأشعر أن مشيتي ثقيلة. يأتي هو بصينية، ويضعها على الطاولة الصغيرة القريبة من طاولة الزينة ويقترب مني. نظل في صمت للحظات. بعدها يقول: "بالضبط هكذا، ويتم شبك الخمار عند النهاية". ويفرد أحد المناديل الحريرية، منديل ملون الأجزاء من الأحمر والذهبي والأسود مطرز بخيوط فضية متداخلة، ويضعه على رأسي، ويربطه. يقول: "في القرى لا يحجبون الوجه، إلى أي مكان تنتمين فإن تلك القطعة تكون منتظمة، ويسقط الخمار قليلاً من الأعلى ويؤطر الوجه، إضافة إلى دلايتين تسقطان على جانبي الصدغين، وتصلان حتى الرقبة. تنقصك تلك القطعة". يُبدي تلك الملحوظة.

لكنه يرفع الخمار ويلقي به مُكوماً على الظهر. يشير لـــي إلـــى الكرسي. "ممكن؟" يقول مشيراً إلى كيس البخور. ويأخـــذ المبخـــرة ويقربها من الصينية، حيث يوجد إناء به فحم متقد ورمـــاد. يفرغـــه باحتراس. ثم يعود إلى الطاولة المستطيلة، يفتح الكيس ويختار القطع الأكثر صغراً، أحجار رمادية صغيرة جداً، ذات حواف تميـــل إلـــى البياض، ويشع منها لمعان خفيف. ويترك الفحم المتقد حتـــى تخـــف حدة لونه المائل إلى الاحمرار.

لا ينظر إليّ، أشعر أنه يُركِّز اهتمامه على الفحم المتقد حتـــى لا ينظر إليّ، ينحني جسده خلال ذلك، تمتد ذراعه بحركة طقسية فيمـــا يميل رأسه، بشعره الأجعد. ثم يلتقط بيده قطعة من القطـــع المنتقـــاة، ويضعها على السطح الذي توجد عليه النار، التي أصـــبحت بيضـــاء تقريباً. فتتفجر سحابة من الدخان، ترتفع وتنتشـــر رائحـــة البخـــور. يستدير "قيس"، جاداً، ويحدثني عن الشجرة التي تثمر البخور والتـــي تنمو في "حضرموت"، يحدثني عن أوراقها التـــي تنبـــت كـــالنجوم، وحوافها المدببة، وطريق القوافل التي تنقل هذه المادة الثمينة، وتقطع شبه الجزيرة من "قَنَا" في الجنوب، على شاطئ المحيط الهندي، حتى "غزة"، أول ميناء على البحر المتوسط. معروف أنـــه فـــي القـــرن الخامس قبل الميلاد كانت تسير القافلة شهرين. يسيرون فـــي خـــط متعرج بين الجبال والصحراء.

المبخرة مفتوحة من أعلى، وعليها غطاء به فتحات صغيرة على هيئة مربعات ومثلثات. وعمود الدخان يخرج من عدة أماكن، أقـــول لنفسي أن العمود المتصاعد هو تسامي المادة المحترقـــة، ورائحتـــه

مختلفة عن رائحة الياسمين، وأسأل نفسي عن المعنى البدائي للطقس الديني. لا شك أنه متناغم ومطهر، لكنه خاص أيضاً، إنه اتحاد ما بين السماء والأرض. رؤية الدخان، في شكل من أشكالها، إضافة إلى أنها مؤكدة، فهي تأكيد للذات.

"بالأمس" يقول "قيس"، "كان يمكنك أن ترى عاصمة "سبأ"، "مأرب"، التي كانت المدينة الرئيسية في طريق القافلة، والتي يقصّون في إنجيلكم، أن مَلِكَتها أهدت "سليمان" كمية كبيرة من العطور والأحجار الكريمة".

"لا أصدق كيف يمكنهم قطع شبه الجزيرة بكاملها في تلك القوافل، كل هذه المسافة الضخمة، المعزولة".

"كانت لهم أهميتهم، فقد كانوا حاملي التجارة مع الشرق، ينقلون المنتجات الهندية، بل وأبعد من ذلك، وحرير الصين، مثلاً".

-20-

هذا الاقتراب من الشرق الأقصى يبدو واضحاً، ففي الفندق الخدم صينيون، وتايلانديون، وفليبينيون، وأيضاً المغنيات، وعازف البيانو. اعتادت "ثيليا" الصعود إلى النادي ليلاً للاستماع إلى أغانٍ إسبانية. كانت تقول إنها تحب الشرقيين، لأنهم يتمتعون بالنظافة، وأيديهم حاذقة، ويعرفون كيف يتعاملون مع الجسد. هذا صحيح، ومع ذلك فإن ذلك اللحم وتلك النظرة تتركني غارقة في العرق. الآخرون،

الرجال العرب، على العكس، يتركون على جسدي شـــيئاً متوارثـــاً، أشعر أمامهم بأنهم يقمعونني، إلا أن جسدي يتجـــه إلـــيهم طواعيـــة، استجابة لنداء بشرتهم القاتمة، وعيونهم العسلية كالتمر.

-21-

**آه، أنتَ يا من تهبط إلى البئر،**
**قلبي يصعد إليك.**
**ترتدي الحرير الصافي،**
**وعيناك عينا غزالة.**

-22-

بدأ البخور يهمد شيئاً فشيئاً، وبقيت في المبخرة جمـــرة مغطـــاة بالرماد. برقة خلع عني "قيس" الخمار أولاً، ثم المشط، وأخيراً القرط والعقود، فخفف من أثقالها عليّ. مدّدني في السرير، وجالســـاً إلـــى قدمي، بدأ يغني، يغني، يقول، إنها أغنية من عدن:

"**أنت كالطير الذي يخفي النهار**
**يفتح عيني النائم.**
**لو كنت أحظى باحترامك**
**لدفعت مهرك مائة قطعة نقدية.**" (7)

(7) قمنا بالترجمة الحرفية التي كتبتها المؤلفة لتعـــذر الحصـــول علـــى الـــنص العربي- (المترجم)..

## -23-

بينما كنت أستمع، ملتفة بالحر الخفيف، كان وجـوده يحتـويني وبدأت في نسيان مرضي وأتطلع إلى ملمســه، لكنــه كــان حبـيس الاحترام إلى درجة نكوصه إلى داخل نفسه ليحميني. صوت رجـل عدن، أقول لنفسي، سيكون لي دائماً الملاك الحــارس. أنظـر إلــى تكوينه الخارجي في لمحة سريعة، وإلى تعبيره الحنينــي، وشــاربه الخفيف، والشفتين الغليظتين، والبشرة الصقيلة، ويده التي ترتاح على الركبتين. أعرف أنه لا يجب أن أقوم بأية حركة. لا شك أنه يشــعر بالإحساس نفسه ولهذا لا يرفع عينيه عن يديه بينما يكرر:

**لو كنت أحظى باحترامك**

...

## -24-

بعد هذا المقطع يعود الصمت، متحالفاً مع الليل الــذي يزحــف. أُغلق عيني وأطلب منه أن يواصل الغناء. فأنا في مكان آخر، بعيــداً عن جسدي، في منطقة مفضضة، ناعمة مرتبطة بخيط معدني، يهبط من الفضاء الغامض، ويضيع في اللانهائي من خلال خــيط صــوته الفضي:

**"قلبي يريد أن يرتوي**
**من نبعٍ صافٍ**
**يد حبيبي فقط**
**يمكنها أن تروي عطشي..."**

-25-

أشق الضباب في ذلك الخط الواضح، كإنذار شفاف، وكامن في جسد كثيف، ويتحول إلى الوضوح. من حولي، فضاء لا نهائي، تلمع المجرات. أذهب، لا أعرف إلى أين، ربما في نقش لامع.

وفجأة يسقط مطر خفيف على وجهي وصدري، مطر من الياسمين. ويتداخل بين شَعري. يلتف جسدي في دوامات من كثبان عاشقة.

-26-

يفرض العطر نفسه على الكآبة، ترى هل له قوة تفوق قوة النور، خلال تلاقي العناصر ينكشف الفضاء الداخلي، وهو ما يدفعه إلى ملامسة المحيط بنا، فيعيد التوازن في الروح. هذا هو الفضاء: حالة الروح.

-27-

أعرف أنني نمت وعندما استيقظت كان قد ذهب. أخذني "قـيس" إلى الحلم وتركني فيه، في ذلك الفضاء الآخر حيث يخترق العطـر. لقد عبر به اليوم في طائر بريش متعدد الألوان، يعود رأسـياً إلـى السماء البيضاء. عندما راقبته قال لي إنه طائر حَلُم برؤيته لسـنوات طويلة. كان قد شاهده مرة واحدة، لكن طيرانه السريع أخذ منه حتى الألوان. والآن فهو يمتلكه بكل وضوح أمام عينيـه، ومـع ذلـك لا يصدق وجوده الواقعي: ريشه أزرق وبني، وبعضه ضـارب إلـى الاحمرار، وأصفر، يرتفع في بريق مهيب حتى يضيع.

مهابة جسدي، الذي تعيد لي المرآة هيئته مرة أخرى، إنه يسـير إلى العنف في لون ضائع بين الاحمرار والاصفرار. رؤيته تأخـذني من طيران الطير، ومن صوت "قيس"، الذي لا يزال يسكن سـمعي، ويغرقني في جحيم التشوش: عنف "أمل" ورغبتي في الاقتراب منه، والحديث معه، واستعادة الانسجام بيننا.

التوصل إلى التناسق حتى في غير المتناسق، تـوازن، وإذا لـم يكن ممكناً، فإنه القتل، لكنه آخر ما ألجأ إليه كطريقة أخرى لاستعادة التوازن: الانتقام. وأنظر إلى "الجنبية" بحدها المقوس، الذي لا يرحم.

-28-

تنظر إليّ عينا "أمل" بشكل خاطف من آخر المقاعد. يشير إلـيّ "علي". تجلس أمامهما "ثيليا". فيما يحيط بها مواطنونا الإسبان. رغـم

إمكانية أن أبدو متعجرفة، فقد توجهت إلى الطرف الآخر البعيد الذي يكاد يكون خالياً، وأرى هناك رجل عدن، يجلس وحيداً. أجلس إلى جواره فيسكن معه كل قلقي. أدخل في حالة من الانسجام الكامل. لا شيء له وجود سوى تلك اللحظة: حركة الأتوبيس الذي بدأ في الانطلاق، ذراع "قيس" تلاصق ذراعي، وبدأت المشاهد تجري من خلف الزجاج، إنه الصمت المحبب الذي يسيطر الآن.

بدأنا نترك بيوت "صنعاء" من خلفنا، نعبر الأحياء الجديدة والمتجاورة ببطء نسبي. ألاحظ وجود حوانيت تجارية لا نرى مثلها في السوق: محلات لبيع الوسائد حيث يمكن شراء المخدات والمساند المتحركة التي توضع في الدواوين، أو الحوانيت التي يبيعون فيها القمريات(8). ذات الأشكال الجصية، التي تشكل الأطر الخارجية، للزجاج الملون الذي يزينون به النوافذ. يتوقف الأتوبيس مرات كثيرة بسبب الازدحام، لكني أسبح في الفراغ، هناك مسافة تفصل بيني وبين الخارج ولا أكاد أنتبه إلى أن تلك الرصانة تتقدم، فأنا لا أزال ملتفة بنفسي. عندما أخرج من حالتي هذه، أرى جبالاً صخرية، وبيوتاً تكاد لا تنفصل عنها، بمبانيها العالية ونوافذها الصغيرة، أرى مجاري نهر، وبعضها مبرقش بالحشائش والأشجار، ثم مزارع القرع التي تبدو كفرشاة صفراء، أرى أيضاً ثمار القرع على أسطح البيوت، وآباراً قديمة بعيدان طويلة، أشجار الصنوبر، وأشجار الفاكهة، وعلى الطرق تسير الحمير والماعز والأغنام ذات الرؤوس السوداء، وقرع أيضاً وذرة، وهناك في العمق جبال ضخمة وعريضة، بلونها الرمادي المائل إلى الزرقة.

---

(8) القمريات: الزجاج الملون المعشق في الجص - (المترجم)..

شيئاً فشيئاً، يمتد اللون الرمادي، وتظهر على الصخور بيوت من الطوب، وفجأة، يظهر في الرمادي خط أبيض – ربما تكون ملاحات – والكافور، وأماكن بيع الفاكهة المجففة بجوار الطريق. ثم بعض المزارع الصغيرة مزروعة بالطماطم وحقول، وحقول قمح كبيرة. يعبر غراب في الهواء، ***علامة الفراق***... أنظر إلى يد "قيس"، باطنها أكثر نصاعة من ظاهرها. يفزعني هذا التناقض، فأنا أشعر مرة أخرى بالاختلاف في الواقع الفيزيقي، وأننا قبل كل شيء لسنا سوى مادة أولية، مادة ملغزة وحيوانية. ويدي أيضاً باطنها مختلف عن ظاهرها، وردي، ولكن يكاد لا يُلاحظ الاختلاف. ملامح "قيس"...، إلى أي ملامح تنتمي؟، كيف يتجاور الأنف الصافي، المتقن، إلى جانب تلك الشفاه؟، ومع ذلك، فإن معنى شفتيه، وتكوينه الداخلي، ينتميان إلى الصفاء نفسه.

لا تزال يده هناك، معتمدة بشكل أفقي للفخذ، والأصابع مثنية، مكونة شكل القوقعة. والخطوط أخاديد، ممرات، والتجويف مخبأ. أقترب منه، وأغرق في الحقول المسحوقة، الطرق المليئة بالخيرات: إنه مشهد محبب يبعدني عن كل هذا طوال الطريق. أدخل من خلال البشرة إلى الخلايا، والحوائط الرقيقة اللطيفة المليئة بالتعرجات، تتشكل على هيئة شراك من الفضاء، قابلة للتلون حسب الأشكال الخارجية. وتمددات شعيرية، مرعبة، سماء كابية، ومصاطب متدرجة، وسفوح غامضة، ثم المدينة.

إنها "دَمار" يقول "قيس"، تقتحم الكلمة الهواء كنغمة عزف. "دمرها زلزال، لقد كانوا يروضون هناك أفضل الخيول العربية،

ولكن معظمها مات خلال الحرب الأخيرة. المدينة التي مررنـا بهـا قبل قليل، تلك البيوت التي على السفح، كانت "حُجة". يمكن مشـاهدة أحجار ضاربة إلى السواد، ومرتفعات حجرية بمختلف المسـتويات، وفي المقدمة، الأرض المرقشة بامتداد الأخاديد. وفجأة تظهر بعـض السحب تسرع وتغطي السماء: تتغير درجة الحـرارة، يحـل ظـلام فجائي، انقطاع إلى حد ما، انفصام بيني وبينه، وبين مشهد كان قبـل قليل حميمياً وأصبح الآن مبتعداً، لا يقبل اللمس كـالمرأة المحجبـة. ربما يعود هذا إلى حياء "قيس": من المعروف عن المـرأة المحجبـة أنها تكون آمنة في البعاد، معزولة حتى عن وجودها، عن حضورها، وتقريباً عن كينونتها.

-29-

أن يكون الآخر غريباً...، ولكن أن يكون الغريب هـو الجسـد نفسه... أم أن الأحاسيس تحيا ببطء وبتقدم حثيث؟، تتفتح العين علـى السَّحَر وتبدأ أول لمساتها مع العنصر الحيوي، محجوبة بالنور الـذي يفصل ويفرّق بوحشية، ويدفع بها إلى بدء الحركة، يعـدها، ينزعهـا ويعريها، ويحركها في الوقت نفسه يكبلها. من هنا ينفتح الطريق أمام الاهتزاز الذي يلف الأوراق الداخلية في فضاء الهواء، تلـك الأوراق حاملة الرسائل عبر الأثير إلى العقل، وتنزلق فـي الجسـد، تقـتحم المركز، وبما إنه مركز أصيل فإنه يعشش في المركز. وهكذا ينعش الدم. ويسحب الرائحة إلى السكرة وإلى الهذيان. يكفي الوصول إلـى

تلك النقطة، حتى يمكن الإحساس بكل لحظة مادية في كأس يعطي ويأخذ، في زهرة يتحرك تويجها حركة جذرية. وكل لحم شفة. وبعدها فإن الفم هو الذي يتقدم ويعتدل، يبدأ تبديل الحياة، الاندماج. واليد هي قبضة من قمح، نبع طليق.

-30-

نبع غامض وساكن، غامض. متلاصقان أكثر من اللازم، أرى ما لا أرى، لأنني أرى تلك الخطوط، تلك الأخاديد في امتداد كفه، لكني أرى أيضاً الشكل اللوزي لعينيه ووجهه المتشوق غارقاً في ضوء القمر، كل الكآبة ساكنة في صدغيه وتتشكل فيما بعد بفعل دخان البخور في الصلوات. ومرة أخرى أرى انخطاف صوته الذي يحدثني عن المنطقة الخضراء التي نمر بها الآن، بعد أن تركنا مدينة "إبّ" والمدينة الشبحية "يريم" المحاطة بالجبال الهرمية، ومحمية بالنسور والحدآت وطيور جارحة أخرى.

-31-

تتلون الجبال بالأخضر بشكل تدريجي، إنه جبل "سُماره"، كله قطع متعرجة، صنعتها يد الإنسان منذ زمن طويل. إنها مصاطب يستفيدون بها من ماء المطر، لكنها تبدو جزءاً من المشهد الطبيعي...، كل مصطبة محاطة بحائط، يحافظ على بقاء الماء

ويترك جزءاً يهبط إلى المصطبة التالية. إنها أرض خضـــراء، كمـــا يقول اليمنيون، بفضل تلك المصاطب. ولكن هناك بعض المصـــاطب مهجورة، سقطت الجدران، فتغلَّب فيها ماء المطر على الأرض، إنه عمل قرون بدأ في الضياع.

الوادي ليّن، يبدو كما لو كان يحافظ على أجسادنا، ويرى الواحد منا أنه إذا عاش فيه، فهو ليس في حاجة إلى أي شيء. يذكر "قـــيس" أسماء أنواع المزروعات: مانجو وجوافة وبرتقـــال وعنـــب وقطـــن وكتان وسمسم وبرسيم..، وعند الصعود إلى سفح الجبـــل، الشـــعير والذرة والدخن... توقفنا هناك، رغم زحف ماء المطر علـــى الأرض بعنف، لأن الاستقامة كانت تتغلب على الانحدار، وحـــواف الجســـد، وبدأت التخوم تتلألأ.

-32-

أن تترك أو تتوقف في آن، أن تترك ما هو كـــابح، والتوقـــف لتأمل المشهد الطبيعي، لإبعاد الوعي من تلك الاندفاعات التي تجري في داخل الجسد: الانجذاب نحو الآخر. إن إقامة جدران تخفف مـــن وحشية الماء وتجعلها خصبة وليست مدمرة، تُحوّل الكائن إلى مكان للتأمل.

-33-

نعم كانت هناك أشجار البن، هذا من قبل، ولكن ليس في الجانب المرتفع لأنها تتجمد... قبل ذلك كان بن اليمن، فـــي القـــرن التاســـع

عشر.. "موكا"[9]... إنه لون القهوة، لون ظاهر كف رجل عدن، وهناك، أقام "سليمان" في صنعاء قصر "بلقيس"، إنه قصر "غمدان"، يقول، كان سقفه من الرخام الشفاف يمكن من خلاله رؤية الطيور أثناء طيرانها، وعندما كانت تهب الرياح، كانت تمر عبر الأسود الحجرية، التي تحرس جوانبه الأربعة وتخرج زئيراً مرعباً. "بلقيس"... Nigra sum sed formosa.. ما لون الملكة؟، و"سليمان":

**"قبلني بفمه أنا حبيبي**
**إنه حب أحلى من النبيذ".**

كان الهدهد يحمل رسائلهما. وهناك عشاق آخرون مشهورون... المجنون، مجنون ليلى:

**"أبوسُ تُرابَ رجلكِ يا لويلي**
**ولولا ذاكَ لا أُدعَ مصابا**
**وما بوسُ الترابِ لحبِ أرضٍ**
**ولكن حبُ من وطئَ الترابا**
**جننتُ بها وقد أصبَحتُ فيها**
**محباً أستَطيبُ العذابا**
**ولازمتُ القفارَ بكلِ أرضٍ**
**وعيشي بالوحوشِ نما وطابا"[10].**

"قيس..."

---

(9) هذه الماركة العالمية الشهيرة مأخوذة من كلمة "المُخاء" وهو اسم الميناء الذي كانوا يصدرون منه البن اليمني قديماً – (المترجم).
(10) عدنا إلى النص الأصلي من ديوان "المجنون" – (المترجم).

والآن تُصَفِّرُ في الوادي، أعاصير ضخمة تلف الماعز والأبقار، وترتفع كقمع أرجواني، سحابة من الغبار، وهو يتحدث، يواصل الحديث. تقترب الرياح، نحن في منطقة الرياح الموسمية... قديماً كان كل شيء يخضع لحركة النجوم، عندما يكون القمر في مدار السرطان، يُعلن عن حصاد الشعير، وعندما يكون في مدار الأسد، يتم حصاد العنب في الجبال، وحركة القمر والثريا تُشكِّل مواقيت الزراعة، عند ظهور فينوس فجراً وتعامد أشعة الشمس يأتي وقت الأمطار. عندما تظهر الزهرة عند طلوع الفجر في بدايات يوليو، تروي الأمطارُ الأرضَ الجافة، وترتوي أراضي الري بماء الأنهار. العاصفة الترابية تنتشر، فيما بعض الأمطار المتساقطة تضرب الزجاج، الأخضر يبدأ في استعادة الحياة.

–34–

لو اننا هذه الليلة في "عدن"، يقول هو... وينسى جسدي واقعه المؤلم، ويستعد لاستقباله بأي طريقة، كما لو كان هذا الصوت صوته، كما لو كان الحديث عن الأرض، هو الرخام الرقيق الذي يدعني أرى طيرانه الذي يعرضه عليّ، لو أن تلك العيون المرآة الواضحة لرغبتي العميقة. لو انها ليلة "عدن"... لكننا لا نزال في منتصف الطريق، نقترب من "تعز"، لا تزال هناك ساعات طويلة للوصول، أقول: "مدنكم، ببيوتها العالية المعتنى بها، ونوافذها الصغيرة جداً، ومآذنها، يبدو أنها مقامة منذ قرون. وفي الوقت

نفسه..."، يقول: "كانت كل الأبواب من الخشب المزخرف، ينزعونها الآن ويبدلونها بأبواب معدنية زرقاء".

-35-

الأزرق، زرقة السماء، زرقة القمر في وجهه، والأخضر، هناك في الخارج، لكن ليس في الأخضر هروب، تتحـــول الأمطـــار إلـــى طوفان، بحر ينهمر بكامله، ينحدر من السحاب إلى الأرض، يزمجر كبحر، يتحرك في موجات عاتية كالبحر، العالم يغرق، يدمر، يغرق، والرجال والنساء يهربون على الطرقات في فوضى. ونحن نحتمـــي بزجاج وحديد هذه العربة المائية.. نحن، هو وأنا، في أمان، كما لـــو كان هناك رحيم يحمينا من تهديد الموت المرعب، وتعيد تلك اللحظة خلقنا معاً، لو اننا الليلة في "عدن".

-36-

في "تعز"، يجلس "أمل" جانبي إلى الطاولة، "قيس" أمامي وإلـــى يساره "ثيليا"، وإلى يسار "ثيليا" يجلس "عباس"، لا نتحدث، قرب "أمل" ينزع عني الطهارة التي أخذني إليهـــا رجـــل عـــدن، تغـــيم عينـــي وأفكاري، أعرف أن "قيس" لا ينظر إليّ لكنه يرى كل شيء. إنه يقرأ أعماق الوجوه، وربما الأجساد. تناول الطعام ببطء، تجنب الحركات التي لا معنى لها، لكن ما لا أستطيعه هو الحديث مـــع "أمـــل"!، ولا

شك أنه يغرس عينيه في البريء، و"نبيلة"؟، "نبيلة" غير موجودة، لـــم تأت، على المائدة أطباق من الحمص والفول، وسيقدمون لنـــا لحـــم الضأن بالبطاطس، النبيذ لا، زجاجة المياه المعدنية علامة كافية.

أجد نفسي من جديد في بئر، في جحيم اليأس. إن المادة الفيزيقية لمن مزقني توجه إليّ لطمة قاتمة. يعود صوت الزغرودة الزاعـــق، النار والدم يعلنان عن وجودهما، أبحث عن ملجأ في السماء التـــي لا تزال محملة بالعاصفة.

يتحدث "عباس" مع "ثيليا" (عينان خضــــراوان وقلقتـــان، شـــعر أشقر، أسنان صغيرة ومتراصة، وبيضاء جداً). يمكنني القول إننـــي أتأملها للمرة الأولى. وحتى "أمل" يخرج عن صمته ويتوجـــه إليهـــا بالحديث، كانت تأكل عسلاً بالحلوى، وتطلب المزيد، وأنـــا أحـــاول الهروب إلى الفكرة المتسلطة على عقلي: لماذا يا "أمل"، لماذا؟.

-37-

"أنتِ عروس صنعاء"، وتقترب شفتاه وأنا أتراجع إلى الخلـــف. كل شيء كان، ولا شك، في تلك الإشارة. ربما كان يستعيد الحقيقـــة: أنا، التي لا يمكنها أن تعرف أبداً معنى أن تكون امرأة من اليمن، أن تكون صبية من اليمن، لقد نظرت إليه كعروس، وقفت في الحال بلا مُغمَق، ربما تأملت الوجه للمرة الأولى. لم تكن، مـــع ذلـــك، المـــرة الأولى التي أنظر فيها إليه، تقاطعت عيوننا منـــذ لحظـــة وصـــولنا. جماله، كان يجذبني ويجرحني في آن، ربما لأنني أنا من كنت البادئة

في الحديث معه..، لكن ذلك المظهر، وذلك الإعجاب، والقناعة بأنه لا شيء يستعصي عليه، والثقة الكاملة حتى في طريقة تقديم الطعام له، وحركة أصابعه عند تقطيع الخبز...

-38-

لأني لم أكن صبية من اليمن، لم أعرف ما هو الحرمان، عدم وجود أي شبَاك حماية عند القفز إلى الحياة، عدم المرور بالمراهقة... القفز من الأرجوحة إلى الولادة في الجهل، كل هذا يعطي الجسد معرفة ليست في حاجة إلى المرور عبر العقل. أجسادنا عكس ذلك، رغم أنوار العقل، كانت جاهلة: كان على جسدي أن يمر بالحياة كاملة ليستعيد، أو ليصل الآن، إنه متعلق بالدخول في الفتنة، فتنة في الوقت نفسه تتسبب في التطلع نحو افتتان الآخر. هذا ما كانت تعنيه نظرة تلك الصبية. وربما نظرتي أيضاً، أنا تتبعتها، ولكن دون عبور البوابة. و"أمل" تتبعني وعبرها، حطمها.

-39-

يبدو على ملامح "قيس" عبوس، بينما كنت أتناول القهوة مع "عباس" في الشرفة، التي يمكن من خلالها رؤية كل المدينة، عبوس عميق في عينيه، ملمح خفيف من القلق على شفتيه المنفرجتين، لكن صديقه يقترب منه ويحادثه. ألاحظ إتقان استدارة أذنه، وعنقه،

وبياض قميصه الذي يُبرز شكل صدره، بينما "عباس" يحكي لي أنـــه شارك في الحرب، ودخل السجن، وعاش حياة قاسية، تمامـــاً مثـــل بلاده، التي لا تزال تشهد أكوام البيوت المهدمة لأنه في أي لحظة..، "الشك في أن تعود الأحداث في أي لحظة"، يقول، "علينا أن نتأكد من قناعتنا بالأفعال والنيات. كيف يمكننا مواصلة الحياة ما لم؟، هناك من يعيشونها بجانبها البطولي". أقول لنفسي "أمل" من هـــؤلاء، يتلـــبس "أمل" دوره بشكل دائم، أما "عباس" فهو إنسان.

يقف "قيس" وصديقه إلى جوار حافة الشرفة، لكنهما لا يتكئـــان عليها، يبرز من خلفهما وجه "علي" الغاضـــب، بنظرتـــه الســـاخرة وشعره الأجعد كإكليل متسام. خلفهما في البعيد أرى "أمل" مع "ثيليـــا" و"صلاح"، إنه فتى مصري. لن يتركونا نتنزه في "تعـــز"، لا وقـــت لذلك، كل ما سنراه هو ذلك المشهد العام المضيء، المغسول بالمطر، المكون من البيوت البنية المتراصة بإتقان على سفح جبـــل "صَـــبِرْ"، ومتوجة بمسجد أبيض اللون، بمئذنتين مرتفعتين، مسجد "الأشـــرفية" وتحت أقدامنا حركة الناس في الشوارع الضيقة، والسوق، وبعـــض الأشجار، التي تبدو كأشجار الحور والصنوبر..، صـــوت "عبـــاس"، الذي يقترب من الحدة، يعلن عن رغبته في الهرب، واقترابـــه علـــى الأقل من "المظفر"، مسجد كبير يعود إلى القرن الثالث عشر، بمئذنة واحدة، أو من "المعتبية" الذي لا توجد به أي مئذنة ويعود إلى القرن العاشر. يقول لي إنه يوجد في "تعز" متحف فريد، وإنه علـــى بعـــد بضعة كيلومترات يقع قصر "صاله"، الذي كان مقر الإمام "أحمـــد"، الذي لم يبق من بهائه سوى بضعة أسود محبوسة، من أحفاد تلك التي

كانت تحرسه خلال الاستعراضات. هذا هو ما كنت أحــب أن أراه، تلك الأسود المسكينة، التي لم يعد لها من هدف، في قصر خاوٍ.

يقترب "محمد" ويقدم لنا قهوة، يقول إننا ســنـنطلق خــلال ربــع ساعة، لذلك علينا إمتاع النظر، تُعتبر "تعز" ثالث مدن اليمن. تمتــاز مثل "صنعاء" بمناخها الطيب. هو يعرفها جيداً، لكنه يؤكد، لا يمكــن مقارنتها بالعاصمة، مبانيها المهمة ومساجدها مثلاً، مبنية فــي عهــد قريب نسبياً.

تنكمش بعض السحب وتتمدد كلوحة مصفرَّة اللون عبر السماء، فتلف كل شيء بحرارة خاصة. ابتعد عن الرجال، وأذهبُ للاعتمــاد على حافة الشرفة، طنين في أذني، أشعر بالتحطم، لا أفهم لماذا يعود الإحساس بالبعاد داخلي، ليس البعاد عن المشهد الطبيعي المحيط، أو عن سكان هذا البلد، بل عن كل ما يحيط بي، أعني حتى منــي أنــا، ومن هذين القطبين اللذين يتجاذباني، "أمل" ورجل عــدن، الــذي لا يزال يتابع مع صديقه النظر إلى المشهد المحــيط بشــكل مــبهم. لا أستطيع العثور على نفسي، حركاتي لا تنم عن حالتي الداخلية، أنــا لست هنا الآن. حقيقة، أشعر بالوحدة، أنا مع "أمل"، أجذبه من كتفيه، أهزه، أبدأ في ضربه حتى ينتبه إلى ما فعله بــي، لكنــي لا أســمع صوته معترفاً بذلك، لا أرى غير عينيه مُركَّزتين عليّ، ولا تــزالان غامضتين..، وفجأة أنا مع رجل عدن، أكاد أفنى فيه. لكل هذا فأنا لا أحتمل جسدي، فأنظر إلى الفضاء الجحيمــي الــذي يفصــلني عــن الحواري الموجودة في العمق وأشــعر أنهــا تنتظرنــي، كأحضــان مفتوحة، وأفتح فمي لأتنفس كما لو كنت أقضم جرعة من الموت.

ضايقني، هبوط الأتوبيس البطيء من المكان المشـــرف علـــى المدينة، حتى قلب "تعز" واستحالة توقفه هناك، أو على الأقل الســير على الأقدام في أحد شوارعها، السير على الأرض، لكن يـــد "قـــيس" كانت هناك من جديد، إنها أدنى حقيقة يمكنني أن أشعر بها.. لكننـــي لا أستطيع أن أتغلب على القلق الذي يغزوني عندما أنظر إليها، إنــــه الدوار الذي يسببه القفز من داخلي المشتاق إلى السكون الظاهر. مــا سبب هذه الكآبة على ملامح وجهه، لماذا؟، ربما لأنه يشعر بشـــيء مماثل؟، هل يمكن للمكان والحالة أن يفرضا نفسيهما؟، أم انه شـــيء لا يمكن التعبير عنه، لا يمكن توصيله، أو المشاركة فيه، ربما شيء لم يتم تحديده بعد؟، شيء مُسوَّر، محبوس بالخوف؟.

إنها ساعة "القات"، ويوزعون الأوراق، وزجاجات المـــاء، فـــي الوقت الذي يبدأ فيه المشهد الطبيعي في التغير، تبدأ الاستعادة، علـــى طول الطريق، من أشجار محملة بالزهور الحمـــراء، وأوراق تبـــدو كقنبرات خضراء الريش. تبدأ أشكالها في فرض نفسها، وأسأل "قيس" عن اسمها، يقول: "إنها أشجار التالوق"[11]. تذكـــرني قتامة أوراقـــها

بطائر "أبو منجل"، ومناخ جنوب إسبانيا. هويـــة ذلـــك المنـــاخ سمحت، فيما أعتقد، بتمثل الثقافة العربية بشكل طبيعي. أحكي له عن

(11) التـــالوق: شـــجر ضـــخم الجـــذوع ينتمـــي إلـــى فصـــيلة "الطلـــح" – (المترجم).

"قرطبة" في الربيع، وكيف أن المدينة تنشر خماراً من الفرح، نتيجة روائح الأزهار التي تغطي شوارعها، والدخول إلى حدائق القصر، انطلاق أسراب الطيور، الأقواس المشتعلة بالأضواء، والطريق المعطر بزهور الحناء البيضاء، وزهور اللوتس على سطح البركة، تنتشر كما الكؤوس، بينما تبدأ على الجانب الآخر من الطريق، أشجار السرو المستقيمة العالية على هيئة أسطوانية، مدهشة، تشي بإيحاءات إيروتيكية بارتفاعها وتكرارها، إلى جوارها، هناك أشجار البقس أو الريحان. أشرح له معنى دخولي المسجد (قرطبة)، المرور عبر الأعمدة، الشعور بالدوار المدهش الذي يدفع المذابح الكنائسية الجانبية إلى التلاشي، وحتى الجزء المضاف إليها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، لإفساح المكان لإقامة الكاتدرائية، السير تحت الأقواس المحملة فوق بعضها، السير على أرضية الرخام الأبيض، والبلاط الذي أضافه إليها المنصور، الاقتراب من القبلة، الغرق في النور الذي يمرق من خلال القباب، ويرتكز على باب المحراب، الذي تقلد زخارفه التناسق من خفة الفسيفساء، من الذهبي إلى الألوان السبعة التي تنشرها الظلال، والإحساس أن الداخل يمر بخفة طائر، أن يبقى الإنسان كما لو كان طائراً. هذا الإحساس يسيطر عليّ دائماً، لأن المكان يلغي الزمن. أقول إن المسجد يُشكِّل بالنسبة لي حالة من الهيام في غابة مترامية، كما لو كانت تلك الغابة، مسكونة بالآلهة...

يحدثني الآن عن "جولد مور"، ساحل عدن، الذي يسمونه بالعربية "الساحل الذهبي"، بسبب لون رماله، حيث يمكن الإحساس

بحالة الحياة خارج الزمن. يؤكد البعض أن الجنة في عدن، "جنة عدن"، وهو يرى أن "جولد مور" مهد أول حب في الخليقة. صفاء الألوان، الأزرق القاتم في الماء والسماء، دائماً يلتقيان، لقاؤهما يعكس حالة من البهاء ويأخذه إلى حالة من نسيان النفس، إلى الإحساس بميلاد جديد. ربما كان النور، الذي يعود بالطبيعة في أصلها الأول.

الحديث دون أن ينظر أي منا إلى الآخر، يمنح الصوت والكلمات أهمية مزدوجة، فأدخل في كليهما، في سحرهما، الـ"جولد مور"، برقته العذبة، الذهبية، بالضبط، الشمسي، إنها محتضنة، تماماً كما هو صوت رجل عدن، برغم انتمائه إلى القمر، فهو ماء المحبة والدهشة، إنه الوسيلة التي تحملني إلى ما هو خبئ، ويغرقني في تأكيد إمكانية الوصول إلى أعماقه الآن. كل شيء يغريني في هذه المنطقة، إنه الحبل السري وأنا، أنا وحدي، التي تولد في أحضانه، أنا حواء المولودة من صوت آدم ذي البشرة القاتمة، أشعر، هذا هو ما يحدث بالضبط. ربما بسبب رمال "جولد مور"، المطهرة بالشمس، خَلَقَت جسده، وجسدي أنا "ليلى"، يغطس في نبع سيال، نبع ومجرى، يغويه القمر. لا زلت هناك في الجنين، رغم تشكلي الكامل، رغم اكتمالي، في حاجة إلى أن تتغذى الطبقة الأرضية أولاً من جسدي. أشتاق إلى أن أستقبل أكثر، كينونتي في الأصل تعرف ما هو التشكل الكامل، والشراهة التي تلتهم كل ما يقدم لها. أوه، ما بين المياه والرمال الذهبية، جسدانا متلاحمان، أحدهما منذ التكوين، يتداخلان معاً ويلتفان ببعضهما، كلاهما كينونة متلاحمة مع الآخر...

ولماذا يوجد هذا النهر الهوائي هنا، يصبح المادة، ما بين الاثنين؟، إنه لا يعكس الواقع الحقيقي: إنه ينطق الكلمة التي تُحوّلنا إلى كهف، يُخفي كل منا، في شفتين متوغلتين، وحالة انفجار نبع في السكون.

-41-

هذه الليلة سأشرب في شفتيه أول رشفة في الحياة، سأترك نفسي رهن أنفاسه حتى آخر شهقة. هذه الليلة سيمحو هو علامات الاستشهاد من جسدي، سيمنحني جسداً من نور، سيجعلني ملمسه ساطعة. هذه الليلة يصبح جسدي وجسده وردتين في حديقة من الورود، عطراً وناراً خالصين، سحابة من نار، في حالة انتشار سماوي دائم.

-42-

"نقترب من الحدود القديمة"، يقول، بينما يتواصل مشهد مباني الطابق، وبعدها بستان ممتد، وبعد ذلك امتداد رملي يتوزع على جبال وعرة بقمم ناعمة: إنها منطقة (محاجر) الجص وهذا نهر "تُبَن"، الذي نتبع مسيره، ويرافقنا تقريباً حتى نصل إلى "عدن". وقبل أن نصل الحدود، هناك غابة من النخيل، ورجل يحمل على كتفيه كمية كبيرة من جريد النخل. ثم تزداد مساحة الرمال الممتدة، دون أن

يختفي النهر، وتظهر فجأة مجموعة من البيوت المتراصة، ويتوقف الأتوبيس. ننزل "قيس" وأنا ونبدأ في السير كل في اتجاه، فيما بقي الجميع تقريباً في الأتوبيس. بينما كنت أتقدم، كنت أشعر أنني على وشك الانهيار من جديد، لكني أدخل بين محال الباعة، أتأمل البضاعة، أبحث عن شيء غير موجود. لا شيء يجذب اهتمامي، لا يوجد شيء خاص بالمكان، نفس الأقمشة المخططة، أو ذات المربعات التي يرتديها الرجال، المستوردة من تايوان، المناديل نفسها التي يُشكِّلون منها العمامات، وأوانٍ، وأكواب وأحواض. أرى فجأة شيئاً مختلفاً: سلاسل من اللؤلؤ الصغير الحجم، بعضها مسطح- إنه لؤلؤ من عدن، كما يقول البائع- وأسعارها زهيدة. أشتري ثلاث سلاسل، وعندما خرجت رأيت "ثيليا" تنظر من نافذة السيارة، وتعطيني نقوداً لأشترى لها أيضاً. أعود إلى الحانوت الصغير، أجد "فيلكس" هناك. كان يبحث عن سجائر ولا يجد، انتظرنا حتى نمر على الحوانيت الأخرى فابتعدنا عن الأتوبيس. تساءلت عن معنى توقف الأتوبيس إذا لم تكن هناك حدود، إذا كان اليمن قد توحّد. كل شيء، يجذب نظري في هذه الرمال المترامية من حولنا، يدخل "فيلكس" إلى عدة أماكن فيما أنتظره أنا في الخارج، محاطة بالرمال، أبتعد أكثر دون تفكير مسبق، وحيدة، أبتعد حتى آخر البيوت، كما لو كنت من قماش رقيق ويمكنني أن أُصاب بجرح في أي لحظة، ودون أن أعرف السبب أدخل في حانوت وإذا به هناك، رجل عدن. لا ينظر أي منا إلى الآخر، لا نقول شيئاً، تتقاطع أجسادنا، ترتعد ساقاي، أشعر بضغط الرمال الكثيفة على صدري، إنها مسافة مرعبة، يبتعد هو. أتأمل هيئته الرقيقة، من الخلف، والجاكت

الرمادي، يمشي ببطء وتردد. لماذا وصلنا نحن الاثنين إلى هذا المكان الخالي؟، هل فقط لنشعر من جديد أننا تحت سيطرة الغياب؟، أبحث عن جرعة موت جديدة، لكن كان يجب أن أطرح جسدي هناك في المكان نفسه، وأغرس وجهي في التراب، ممددة في تلك الجرعة نفسها، وتفنى الرمال فيّ من الفم وحتى الجسد بكامله، دون مقاومة للسماء الرملية، لكنه يعود إلى الأتوبيس، يعرف أنه على وشك الرحيل. وأنا كنت أعرف ساعتها أنه سيعود للحديث معي حتى تلفنا الموجات الصوتية.

-43-

إنها الغربان. الأرض البور الشاسعة التي لا نهاية لها. وكذلك الصمت. في الواقع لا يعرف أي منا شيئاً عن الآخر، عن حياتنا. والواقع أن حدة الموت التي تنتشر فيّ، هو كل ما أعرفه في هذه اللحظة، الرغبة العميقة في أن أتمدد في جسده، وأن تتحول رماله إلى مقبرة.

ومع ذلك نحن نقترب من "عدن"، لقد تركنا عاصمة المنطقة خلف ظهرنا منذ فترة، "الْحوْطة"، وتظهر بعض الجمال. إهمال كامل، منفى، يسيطران عليّ أنا، ويرتسمان أيضاً على ملامحه هو، عندما نتوقف، وأتأمل وجهه، أبحث عن عينيه في ظلال النور البيضاء. "والآن أين نحن؟، أقول. "لماذا نتوقف مرة أخرى؟"، "لقد وصلنا" يقول هو، "الأمر متعلق بالجنبيات، الحكاية أنه هنا في

"عدن"، غير مسموح بحمل السلاح دون ترخيص خاص، لذلك كـــل من يريد الدخول، عليه أن يترك سلاحه هنا، في مخفر البوليس هذا. تخيل!، ان كل رجل ينتمي إلى الشمال، عليه أن يترك جنبيته، ويعود إلى أخذها عند خروجه".

بدأ يتحدث، ويواصل الحديث، ولكن لــيس بالحيويــة نفســها. يتحدث عن "عدن"، عندما كانت مستعمرة إنجليزية، عن اختلاف تلك المدينة عن غيرها من مدن اليمن، يتحدث أيضاً عن البركــان، عــن لون الأرض: الأسود، على هيئة خرطوم الفيل، التــي تخــيم علــى الجزء الذي يحبه هو كثيراً، يتحدث عــن الميــناء، عــن الصــيد، والمصفاة. وأخيراً يشرح لي أن "عدن" بها ثلاث مدن كبيرة، ونصل على الفور إلى مفترق طرق، حيث يخرج منه طريقان، يؤديان إلــى "دار سعد" و"الشيخ عثمان". "أنا أعيش في "الشيخ عثمــان""، يقــول. "يجب أن أغادر الأتوبيس بعد قليل ولن نلتقي مرة أخــرى لأننــي لا أستطيع أن أذهب معكم غداً إلى "حضرموت"".

أشعر كما لو أفقد رأسي، ضغط شديد، موجة بيضاء وكثيفة من اللاشيء تصعد في صدري، إلى أن تتخلص من الملامــح. أتشــبث بالمقعد الأمامي بكلتا يدي. لا أقول شيئاً. لا أستطيع أن أقول شــيئاً. لقد قال هو، لن نعود إلى رؤية بعضنا، هذا هو. وربما شــعر أنــه ارتكب خطأ، فقد أضاف: "لكن إن استطعت سأذهب لرؤيتك الليلــة، وإذا كان هذا بإمكاني سأحدثك الليلة تليفونياً". وصحح كلامه بسرعة: "سأحدثك تليفونياً على أي حال، في الثامنة"، لازلت غير قادرة علــى قول أي شيء، كان واضحاً أنه لا يستطيع الحضور لرؤيتــي لأننــا

اتخذنا المفترق، وأفهم أن "الشيخ عثمان" على مسافة بعيدة، في ما يسمونه قلب "عدن"، وليست هناك إمكانية الحصول على وسيلة مواصلات. وأخيراً أتمكن من نطق بضع كلمات: "سأكتب لك"، "وأنا أيضاً. سأحكي لك كل شيء، كل حياتي، وأنتِ تحكين لي حياتك، أنا في حاجة إلى حياتكِ، أفكارك، أن تكوني معي"، يقول ذلك كمن يحتضر. "سأتصل بك"، يكرر قبل الهبوط. لا نمد أيدينا بالسلام. ينظر كل منا إلى الآخر وبعدها نتبادل النظرات عبر الزجاج، ومن خلف النافذة وهو على الطريق. لكنه يستدير، لا يستطيع المقاومة. وأرى ظهره بعدها بلحظات، وظهر صديقه الذي هبط معه أيضاً من الباب الخلفي، وأخرج حاجياته: حقيبة ودراجة طفل بثلاث عجلات يرفعها ويعلقها تحت إبطه. يبدو صديقه سعيداً، يبدو هذا من عينيه. هناك أناس ينتظرونهما، لكني أنا لا أراه. ظهر "قيس" يحتل كل حواسي، وإحساسي بأنني انتزعت من جذوري، وأنني على وشك السقوط لا محالة كجذع شجرة، بكل طولها، وثقلها وحجمها، وسقطت على الأرض. ينطلق الأتوبيس. لم أعد أرى شيئاً.

-44-

دخان، ورود، دخان، انعكاس أزرق، نور قمري، دخان، جفن مغلق، جمرة، فم، ماء في الفم، دوار، دخان، دخان، غبار، بياض، سماء بيضاء، سماء من الرخام، والطائر كان من الورق بمائة لون، كان يلمع، لكن لا، كان منقاره هناك في الهواء، منقاره الحقيقي، كان يغني طائراً، كان ريشه بنياً، أزرق، ضارباً إلى الحمرة، أصفر، يهرب من الرؤية...، دخان، بخور، نذور، دخان...

أنا هنا، أبدأ في الموت مع اليوم، وأنا الآن في مواجهة البحـــر، لكن صوتاً يهزني يقول: "نحن في عدن". إنه رجل البـــوليس الـــذي يرافقنا، جلس في مقعد أمامي وأمسك بالميكرفون. "أهميتها معروفـــة للجميع"، يواصل. "سكانها يكاد يصل تعدادهم إلى نصـــف المليـــون. موقعها الجغرافي يجعل من مينائها رئيسياً في البحر الأحمر. يعبـــر من خلاله ثلاثون مليون طن في السنة. فهي نقطة التقاء بين أفريقيا، وأوروبا، والشرقين الأوسط، والأقصى، الهند، وأستراليا. كانت عدن مستعمرة إنجليزية، والإنجليز هم من أنشأوا مصفاة البترول في "عدن الصغيرة"، التي أصبحت يمنية منذ عام 1977. قبـــل الـــذهاب إلـــى الفندق، سنتجول بالأتوبيس في المدينة والميناء والمصـــفاة، ونصـــل حتى "المُعلا" التي يصنعون فيها السفن الشراعية العربية التقليديـــة – يُعتقد أنه في "عدن" تم بناء سفينة نوح – وسنقترب أيضاً من البركان الخامد تماماً".

البحر، ما وراء البحار، هل هذا البحر حقيقـــي؟، وتلـــك الميـــاه الساكنة؟ وتلك الأرض السوداء جداً؟، المحترقة، المستهلكة، ربمـــا لا يمكن للحياة أن تولد فيها، كما لو في آخر مرحلة من مراحل التطهر. الأرض المحترقة ليست سوى شاهد على ما مضـــى، كـــل مادتهـــا أصبحت معزولة، وتحولت هكذا إلى مجرد مكان في الفضاء الواسع، والسماء، التي تشبه الماء، مستسلمة وساكنة...، في كل هذا الإهمـــال

العام، يشحب لوني من الأبيض والأزرق لبيوت "المُعلاَّ"، وخفة الميناء، و"ستيمار بوينت"، وشارع أروى، ويدور الأتوبيس ويدور، ونحن الآن في "كريتر"[12]، نحتك بالمدينة، وتغيب الشمس، فيما أنا أنزف مع الشمس، التي تغيب على الأرض السوداء، غائبة عن الوعي، أتوه في المشهد، مشهد عدن، الأرض، الكائن نفسه مثل "قيس"، وهكذا، أتدثر بكينونته، وأدخل أخيراً في اللحظة. أنتبه إلى أن تغييراً قد حدث، الجزء الأمامي من الأتوبيس، كان خالياً من قبل، وامتلأ الآن: من خلفي "ثيليا" و"فيلكس"، وفي الجانب الآخر "أمل" بزجاجة ماء بين يديه. وفي الأمام، يقف، "صلاح"، ينظر من النافذة، تهمس لي "ثيليا" في أذني: "مدهش، لكننا لا نرى شيئاً، سننطلق إلى "حضرموت" في الثامنة صباحاً".

–46–

لا نرى شيئاً، ومع ذلك، في ملامح وهيئة "علي"، يمكن رؤية كل اليمن، تماماً كما في ملامح "قيس"، ملامح عدن. الفارق بين الواحد والآخر هو الفارق ما بين الأرض المدجنة، والأرض البدائية، الموقوفة والمفتوحة. المزروعة والمستعمرة. في ملامح "علي" معرفة تكاد تكون عمياء، منقولة إليه عبر الدم، سرية، من القبيلة، قاحلة أو صخرية، ملامح "قيس" مركبة بشكل متناسق، ناعمة بفعل الماء،

(12) مدينة عدن الصغرى أو عدن القديمة، وكريتر هو الاسم الذي أطلقه الإنجليز على عدن القديمة – (المترجم).

ومنفتحة كميناء، قابلة للتشكل، تقبل التأثير والتأثر، والتوسع، والنمو إلى ما لا نهاية، أن تقبل التحول إلى ملامح أخرى. "علي السيف"، أزعق كلما أرى "علي"، لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر، لأنه لا يتحدث سوى العربية. ولكن نطق اسمه ولقبه يكونان كافيين، وهو يعرف هذا، لأنه ولا حتى "ثيليا" تعرف نطق الأسماء.

-47-

لا ينكشف أمامي شيء، ولا حتى رؤية "أمل" في حضوره، أنا في مغيب البركان، في ذلك الأحمر العنيف، بنفسجية الضوء، في أزرق الماء المسوّد، في الرماد القاتم، أسود هذا الشاطئ، ذلك الجبل الراسي. أنا حمراء وبنفسجية وسوداء ورمادية وزرقاء، أتخفف وأتمدد وأستعيد تكويني في هذا الهواء، وأشعر بهدوء كبير. ليست لي رغبة في الوصول إلى الفندق، لا رغبة لي في أي تغيير، لأنني أعرف أن الوقت متأخر للتيه في هذا الجبل، الدخول في فتحاته، وأعرف أنني فعلياً ضائعة فيه هو، أتصاعد على صدغيه، أنزلق في تجويفاته، أتخلى عن دفاعاتي في حنجرته.

ولكن دون أن أنتبه، في هذا الذهاب والإياب بالمدينة، كان نور النهار قد ترك مكاناً للظلال، وبدأت بعض أعمدة الإنارة بالشوارع في الاشتعال، وينطلق الأتوبيس بشكل أسرع، كما لو كان يسير في اتجاه محدد. ويتوقف أخيراً أمام بناية ضخمة، أمام فندق اسمه تحديداً "جولد مور".

ويحبسوننا هناك. أي أنه ممنوع علينا الحركة في هذه اللحظات، يبدو أن هناك مشكلة في الغرف. يجري الناس ليجلسوا، أنتبه إلى أنه خطأ كبير، وأنه يجب الوقوف على القدمين حتى لا يتمكن الحر منا: لقد غابت الشمس ودرجة الحرارة 47 درجة، أنظر إلـى الرجـال، كلهم مصابون بالإعياء: "أمل" و"محمد" و"صلاح" و"عباس"، لكـن لا "ثيليا" ولا أنا أصابنا الإعياء. إنه الشرب، الجميع يريدون الشـرب، وبعضهم يبحث عن البار، لكن لا شيء هناك، هذا الفندق ليس مثـل فندق "صنعاء"، ولا حتى يوجد فيه تكييف. على أي حال فإن الحاجة إلى الشرب... . أشعر أنه لا حاجة للشرب، لأنه ليس عطشاً حقيقياً: أنا لست عطشانة، و"علي"، الذي يقف على قدميه مثلـي، لا يشـعر بالعطش. لماذا يشعر "أمل" بالعطش، وأنا متأكـدة، أنـه مـن شـبه الجزيرة، وإن كان يخفي جنسيته في جواز سفره (علمت ذلك صدفة) هناك جنسية ليست جنسيته التي يعلنها؟، مؤكد أنـه مـن الشـمال، والفارق كبير. يبدو "أمل" منهاراً تماماً، وتحول "صلاح" إلى ظلـه. "ولا حتى في الغرف يوجد تكييف"، تقول "ثيليا" منزعجة. أنـا علـى العكس، فرحت: هذه درجة حرارة عدن الواقعية، ودرجـة الحـرارة كما يجب أن تكون، تلك التي يعيش فيها أهل هـذا المكـان، سـكان "الشيخ عثمان" وسكان "دار سعد"، أهل البركان. أنا أريد أن أتضـمخ بهذا الحر، أنمو فيه، وأعرف أنه لن يؤثر عليّ سلبياً، أشعر بالراحة، متكيفة معه: أخيراً انمحت المسافة بيني وبين الفضاء.

عندما يعطوننا المفاتيح، ويبدو جلياً أن "ثيليا" وأنا لكل منا غرفة مفردة، نصعد على الفور، على أي حال هناك شيء يقول لي إنــه لا يجب أن نجري بحثاً عن الماء، يجب الانتظار. تمشيط الشعر يكفي. الماء، من ناحية أخرى، يخرج من الصنبور ساخناً، بــالطبع، طبقــاً لدرجة حرارة الهواء. الساعة الثامنة: لا أنتظر أن يهــاتفني "قــيس". أصعد إلى المطعم لتناول العشاء. وأرى "فــيلكس" و"ثيليــا" وبقيــة الإسبان، يجلسون إلى طاولة كبيرة. نعم يوجد في المطعــم تكييــف، وهذا شيء طيب، يشعر الجميع بالراحة، كلهم مسترخون، والطعــام لذيذ: أسماك ولحوم بالصلصة وبطاطس وبيرة.

–49–

"قيس" لن يهاتفني لأنه موجود هنا، في الهواء، أنا أستنشقه، إنها قضمات من الشمس في منتصف الليل، قضمات لذيذة، بينمــا هنــاك بعض الموسيقيين، يتخذون أماكنهم على مسرح صغير بلا أضواء أو كشافات، مسرح يكاد يكون مظلماً، يعزفون مقطوعات راقصة تعــود إلى الثلاثينيات والأربعينيات.

انتهى العشاء، طلبت "ثيليا" أن أرافقها إلى البهو، لأنهــا طلبــت اتصالاً خارجياً وقد تأخر كثيراً. تقابلنــا علــى الســلم مــع "أمــل" و"صلاح"، اللذين حيبانا بحرارة. "ماذا كان يحكي لك ذلك الشــخص في الأتوبيس؟"، سألتني هي فجأة، وأضافت: "إنك تثيرين الزوابع من حولك". أقول: "قال إنه سيهاتفني، لكنه لن يفعل، أعرف أنه قال ذلك

على سبيل إبداء حُسن اللياقة، التي اعتاد عليها العرب". حينها، قالت بكل ثقة: "تخطئين، إنه سيهاتفك حتماً. إذا كان قد قــال لــك ذلــك، سيفعل، إذن هيا بنا ننتظر معاً اتصالاتنا".

ومن البهو طلبوا منا أن نصعد إلى غرفنا. نــذهب إلــى غرفــة "ثيليا"، تسخر "ثيليا" لأن المصريين لا يجيدون نطق البــاء الثقيلــة، وعندما يتحدثون بالإسبانية ينطقونها باء خفيفــة. هــذا الموضـــوع وموضوع آخر، يُعتبران من الموضوعات المسلية لــــ"ثيليــا"، بــاء المصريين، وأيدي الصينيين. أنا أعرف شيئاً عن الرسم الرقمي، لكنه لا يُقارن بهذا الشكل، ولا حتى دون كلمات..، "قيس" لن يهاتفني لأنه موجود في داخلي، ماذا يمكنه أن يضيف أكثر من هذا؟، أنظر عبــر النافذة، إلى الساحة الكبيرة حيث تظهر السيارات، والطريق المــؤدي إلى ما هو أبعد من الحاجز: إنه قلق يبعد المسافات، صمت ممزق.

ألقت "ثيليا" بنفسها على السرير، أدارت المروحة. "لن نســتطيع النوم هذه الليلة"، تقول، فيما أؤكد أنا بشكل عقلي: "أنا سأنام مثل كل الليالي الأخرى. وربما أنام الليلة أفضل، سيكون نومي كمن ينام بعد أرق طويل". "علينا أن نفعل شيئاً"، تقول. "هناك حمام سباحة"، "هــل تعتقدين أنه أمر يستحق؟"، أقول. وتواصل هي الكلام، محولــة كــل حروف الباء الثقيلة في الكلام إلى باء خفيفة على الطريقة المصرية، نضحك كثيراً لأن الانتظار ممل، وهي تريد أن تواصــل الضــحك، تواصل الاستمتاع بالوقت. أنا أحسد هذه السخرية، طزاجة سخريتها، وعفويتها. تماماً كجلد وجهها الصقيل، السريع كنظرتها. تبدو جميلــة في استرخائها على السرير، كجارية شرقية، بملابسها الرقيقة التــي

تصل إلى ركبتيها، متحررة، والشعر مهندم بشكل غير منتظم. "يجب فعل أي شيء"، تواصل، وتريدنا أن نهبط بحثاً عن الرفاق الإسبان، وأن تطلب منهم جميعاً الصعود إلى الغرفة فنخطط لذلك. أبحث عنهم، أجدهم عند حمام السباحة، ويطلبون منا نحن الهبوط للاجتماع بهم، لأن انتظار الاتصال سيكون بلا طائل.

بعد أن أبلغت "ثيليا"، أذهب إلى غرفتي: كنت أريد أن أغسل نعلي. أغسله وأسير به مبتلاً. جف خلال لحظات قليلة. ويرن جرس التليفون في تلك اللحظة، إنه هو، "أُحبك"، يقول، "أُحبك كثيراً. أنا واثق من أننا سنلتقي مرة أخرى".

-50-

ليلة عدن لؤلؤة براقة: تلك الكلمات التي تذوب في دمي، تجري في عروقي، وتروي الجسد كله، تُنشطه، تمنح ساعدي وساقي حركة خفيفة، نعومة لشعري، تملأ صدري، تمدد بطني. ليلة عدن هي الصعود الفجائي إلى أعماق البركان النائم، حيث يختبئ سر النار.

-51-

ليلة عدن هواء يتجاوز كل الآفاق، إنه الماء يتقافز على كل المساحات بلذة، إنه دوامات عطر، جماعات طيور، تنطلق أصواتها، كمشاعل في صمت الفجر الأبيض. ليلة عدن أرض تدور، النجوم تدور، أدور أنا في الفضاءات.

أهبط الدرج فأرى "ثيليا" و"أمل" يتحدثان مع موظف الاستقبال. يبدو "أمل" غاضباً، لكنه لا يزعق، بل يُرفق كلماته بإشارات تهديدية، تؤكدها هي بنظراتها. يختفي الموظف من خلف الطاولة بضع لحظات ويعود. يتحدث "أمل" مع "ثيليا" بسخرية، ثم يلتقي "صلاح"، الذي يصل في تلك اللحظة. يقول: "تعالوا إلى النادي. إنه قريب، فقط عليكم قطع الشارع". ويذهبان معاً.

لم تمض سوى بضع دقائق، حتى يعلنوا لـ"ثيليا" أنه يمكنها إجراء اتصالها التليفوني، ويحولون المكالمة لها في المكان نفسه، فأذهب أنا لأتنزه قليلاً حول حمام السباحة. لم يكن أحد هناك، فالإسبان ذهبوا إلى النادي أيضاً، المكان خالٍ تماماً، ليس هناك سوى الصمت، وسواد السماء – لم أشهد في حياتي سواداً مثله – والحر، المدهش أنه يلتف حول الجسد ويحميه، يقيم علاقة جديدة بينه وبين الفضاء، والمناخ المحيط، إنه يذهلني، لكن شيئاً يقول لي إنه لا يجب أن أبقى وحيدة في ذلك المكان، إنه خطر، يحتوي على تهديد ما، يهددني بالاختفاء، الانتصار عليّ، وسرعان ما أكون هناك دون أن أكون، أصبح جزءاً يكاد لا يُرى في الهواء...

جاء "فيلكس" ليبحث عنا، ويأخذنا إلى النادي. إنه عبارة عن مساحة واسعة مستطيلة ومكشوفة، مكان للرقص ومن حوله طاولات للجلوس. في أحد جوانب المستطيل هناك طاولة لتوزيع المشروبات،

وفي المكان مسرح عليه أوركسترا، تعزف موسيقى عربية حديثة. كل الحاضرين في النادي رجال، والنادي ممتلئ عن آخره، كلهم من الشباب على شاكلة "علي". ضامري الجسد، ولهم شعور طويلة، وعيون سوداء، المناخ بشكل عام متوحش.

يجلس الإسبان إلى طاولة منعزلة، ولا يشاركون الآخرين، يكادون ألاّ يكون لهم وجود، متباعدون بشكل خفي. أقرب إلى حلبة الرقص يوجد "أمل" و"صلاح"، جالسان، وعلى وجهيهما تعبير بالاشمئزاز، ويرياننا نمر فلا يُغيِّران تعبيرات وجهيهما. فيما الموسيقى على العكس تماماً تبدو مثيرة، و"ثيليا" وأنا، رغم جلوسنا إلى جانب الإسبان، كنا نشعر بتمرد عميق على رفضهم المشاركة. هل أصابتهم الشيخوخة جميعاً فجأة، فيما كان يجب أن يكونوا على العكس تماماً، ففي هذا الحر، وتلك الموجات الصوتية التي تُعيد الإحساس بالنشاط، ينكمشون هم داخل أنفسهم؟.

"ثيليا" وأنا كنا على استعداد للرقص، لكننا تركنا الوقت يمر على سبيل الاحتراز حتى لا نثير غيظهم. بحثنا عن المرطبات وتناولنا بضع رشفات. لقد بدأ النغم يغزوني. أنا من جديد أمام سر الموسيقى، أمام ذلك الإحساس بالانتماء الذي ينتشر الآن كالصرخات، وحركات الرقص، وأكثر من هذا، في تلك الأشكال البدائية التي تعيش في وجوههم، وأجسادهم النحيلة، ولكنهم لا يستسلمون للرقص. فجأة رأينا رؤوسهم تتفتح كالنخيل، يهزون رؤوسهم، تبدو مهاراتهم الساكنة في لحظة خاطفة. ينفد صبري وأتشوق إلى الاختلاط بهم، أن أندمج معهم، وإن كانت وجوههم تعلن رفضها. إنه من الخطورة

بمكان الدخول بينهم، أشعر بشيء من التحدي وتجاوز الحدود، وتأكيد الوجود الأنثوي الغائب. لذلك، من المحتمل، فهمنا، "ثيليا" وأنا، أنــه يجب استعراض كل شيء. وفي الوقت نفسه هو اعتراف، مشــاركة كاملة، التخلي عن كل الأسلحة.

ذهب "أمل" و"صلاح"، يبدو أنهما سئما الوضع، حينهــا وقفــت واقتربت من "ثيليا" لآخذها إلى حلبة الرقص. ألمح على الفور ملامح الرفض في وجوه رفاقنا الإسبان، لكنها لا تتردد، وبقفزة واحدة كنــا في الحلبة. ما إن بدأنا حتى فهمت لماذا يرقص هؤلاء الرجال عندما يأتي الليل (ليلة درجة حرارتها 47)، والى أي حد يحن الجسد إلــى ذلك الرقص، بعد يوم طويل من الحر الــذي يخمــد فيــه النــبض، وتتطلب الحياة الآن التعبير عن نفسها، إنها الحركة في ذاتها، الذبذبة. والصرخة.

نبدأ "ثيليا" وأنا في الابتعاد – ليس كثيراً فــي كــل الأحــوال– ونتقدم بينهم، نتبادل أماكننا. نعرف أنهم جميعاً يركزون علينا وهناك من هم أكثر عدداً من الذين التقيناهم في "صنعاء"، لكن حالة الاستنفار التي تسيطر عليهم، كانت مختلفة، حالة مجهولة، أكثر صفاء، أكثــر كونية. هذا الرقص لذيذ وشفاف، فهو إضافة إلى أنه طقسي بتكراره، فإنه يتواصل، ويتواصل ويكرر النغمة نفسها، دائماً ما يسلك الإيقــاع نفسه مع تلك الصرخات الحربية المرعبة. يبدو أنه نوع من الإعــداد لتقديم الأضحية. الحياة، وبالتالي، الموت...

لا أعرف كم من الوقت مضى، ونحن نرقص، لكنه زمن طويل، أقترب من "ثيليا" بحذر وأقول لها: "الموسيقى لا تريد أن تتوقــف، لا

يريدوننا أن نذهب، أو أنها تتحدى قدرتنا على الاحتمال، ما إن نخرج من الحلبة حتى يُغيِّروا النغمة"، تقول: "فلنجـرب، فلنـرقص قلـيلاً وبعدها نجلس للاستراحة، ولنرى ما يحدث".

وهذا ما كان، ما إن نخرج من الحلبة حتى تتوقـف الموسـيقى، وتبدأ بعدها رقصة أخرى. عندما عدنا إلى الطاولة كانوا يقولـون إن البحر على بعد أمتار من هناك، إنه المحيط. تريد "ثيليـا" أن تـذهب نحو الشاطئ، تقول: "هيا، علينا أن نلمس مياه المحيط الهندي، مـن يرافقنا؟"، أحد مواطنينا، "لويس"، يقف، ونتجه ثلاثتنا نحو الشاطئ.

تتواصل الموسيقى، لكن هذا ربما لأننا نسير، بالضـبط خلـف الحلبة، التي تتخفى خلف الحائط، أو ربما بسبب الظلام والإحسـاس بالصمت. هذا حقيقي: تبدأ الرمال على بعد أربعة أمتار من الطاولة، وتنحدر ببطء، وبعدها بخطوتين نصل إلى حافة المياه نفسها. ومـن جديد السواد الذي لا يُقارن، عتمتان: المحيط – الذي تكاد لا توجد به سوى نقطة ضوء صغيرة، ربما تكون فناراً، يؤكد وجود الشاطئ عن بعد– والسماء، حيث يمكن رؤية النجوم بتحديد شديد. "ثيليا" و"لويس" وأنا ننحني، ونكمل الطقس: نغمر أيدينا في الماء. الماء ساخن. نبقى بعدها في الصمت، وقد اخترقنا الليل والنجوم، الصمت هائل، عظـيم تكاد لا تتحرك فيه أمواج، تكاد تكون فـي متنـاول اليـد، نجمـة، مجموعة منها تضيء وتشكل هيئة طائرة ورقية أو مثلث، تقف على رأسه نجمة وردية، أكثر لمعاناً من الأُخريات. فجأة أتعـرف عليهـا وأنفجر فرحاً لأخبرهم: "إنه برج العقرب مع النجمة المعلقة. بـالطبع في إسبانيا تكون إلى الجنوب الشرقي، بعيدة جداً"، إنه الشرق، أقـول

لنفسي، ويجري في تفكيري، ثلاثية الشمس والقمر ونجمـــة الفجـــر، التي كانوا يعبدونها في القديم...، أتقدم قليلاً باتجاه النجوم، وأواصـــل تأملها. أشعر بعظمة الكون لكني لا أذوب فيه، بل أشعر بكامل وعيي في ذلك الفضاء الهائل. كل السواد المحيط بي، والسماء، وتلك المياه تكاد لا تفترق الواحدة عن الأخرى، هذه الرمال المعتمة التي تغوص فيها أقدامي، التي تلتف حول كينونتي، التي لا أعرف مصيرها، لكني أعتصم بها متلذذة. أشعر أن هذا التأمل للنجوم هنا، له ملامح خاصة، كما لو كان وعداً أو التزاماً، حتى لو لم يكن كذلك.

تقترب "ثيليا" و"لويس"، يجب التفكير في العـــودة إلـــى النـــادي. وكلما اقتربنا، تفرض الموسيقى نفسها مرة أخرى، الإيقاع المتذبذب، الذي كان قد انمحى نهائياً. عند وصولنا نقـــف مندهشـــين: طاولتنـــا خالية، لقد اختفى الإسبان جميعاً. أفكر: إنه العقاب، هذه طريقة لمنعنا من مواصلة الرقص.

–53–

أصابني الحجر في الظهر، كانت ضربة محددة، ولكنها خفيفـــة جداً، وغير معتادة على الإطلاق. إلى درجة أنني تأخرت كثيراً فـــي فهم معناها، فقط عندما شعرت بالحجر ينزلق على فستاني، خاصـــة عندما استدرت، ورأيت أولئك الأطفال، تمكنت من معرفـــة الســـبب. الإحساس الأول أمام هذا الفعل: هو العزلة، العزلة الكاملة، أي عـــدم الفهم، وحتى الرفض. "ماذا حدث؟"، لم يحدث أي شـــيء، لا شـــيء

بالنسبة لــ"عباس" ولا حتى بالنسبة لــ"محمد". نظراتهما كانت تعكس مسافة كبيرة، عدم اهتمام مطلق بما يمكن أن يؤثر فــيّ فــي تلــك اللحظة: ما يحدث لي، بالنسبة لهما، ما حدث لي لا قيمــة لــه. أمــا بالنسبة للأطفال، فعلى العكس تماماً، الأمــر مهــم لأنهــم قــذفوني بالحجر. بعدها بأيام شرحت لي "ثيليا" أنه في أماكن أخرى، حدث أن قام بعض الرجال، برش النساء غير المحجبات بحامض الكبريتيــك لتشويههن. لكن، كيف يمكن التحجب، من أين لهن بهذا الامتياز، من لا يستطعن الدفاع عن أنفسهن؟.

-54-

الطاولة الخالية، والليل يتقدم، الموسيقى، والزغاريد المتكــررة، السماء السوداء التي هبطت فجأة كجرح هائل يعزلنا عن كل شيء..، يجب العودة، ودون أن نقول شيئاً، نعود. نمر عبر الجانب الطويــل للمستطيل، نمر إلى جوار طاولة المرطبات، نمــرق عبــر البــاب، ونخرج من النادي. يعود الصمت من جديد، الصــمت الكامــل فــي الفندق. لا أحد في البهو، ولا حتى في الاستقبال، لا أحد في الحديقة، ولا حول حمَّام السباحة، صمت مقلق. يتركنا "لويس"، يصــعد إلــى غرفته. تريد "ثيليا" أن تبقى لبعض الوقت، فــنجلس فــي الخــارج. "رجالنا أولئك.."، تقول. لكننا لسنا في حاجة إلى مناقشة مــا حــدث، نتحدث عن الحر. الساعة بعد الواحدة، أشعر بأن جسدي بدأ يخمــد، أشعر بطنين حاد ومتقطع، اهتزازات دقيقة تدخل في اللحم، رغــم أن

الرأس لا يزال مستيقظاً، العينان لا تغمضان. أما "ثيليا" فعلى العكس، تعاودها فكرة عدم القدرة على النوم، وأنها ستمضي الليلة مستيقظة. أنا أعيش في الانتشاء الكامل، لأنني أعيش حالة أخرى. ويمكنني البقاء على هذه الحال إلى ما لانهاية. يبرز "فيلكس" من الباب ويأتي ليجلس معنا، لأنه يشعر أنه حبيس الأرق. وأنتهزُ أنا الفرصة لأصعد كي أنام.

-55-

إنها ليلة عدن، فجأة، ما إن دخلت السرير، والشباك مفتوح، والمروحة تدور، حتى حلت بالجسد رائحة جعلته يجد درجة الحرارة التي تجعله يشعر بلمسة اللذة، ملمس ما تحت الأرض السوداء، كل القوى البدائية، إلى أقصى أركانها الشاحبة، بينما الرأس، يسيطر عليه حضور غائب، يستسلم له، وللنوم الذي حل به وبقي هناك إلى أن يأتي النهار.

-56-

لا أرى شروقاً، يوقظني نور واضح، يدخل من النافذة، فأهرول لتناول طعام الإفطار، لأنني أريد أن أرى البحر قبل أن نذهب، أصعد إلى الطابق العلوي وأنظر من خلال شرفة تطل على الشاطئ: الرمال ذهبية، بها بعض الصخور، والماء والسماء لهما اللون

الأزرق القاتم نفسه. "جولد مور"، أقول بصوت مسموع، الحرارة مرتفعة والنور يغشي البصر، يكللني، لا أستطيع البقاء هناك سوى لبضع دقائق، لكنني لا أحزن. "جولد مور"، أكررها بشكل يُحوّل الكلمات المنطوقة إلى غذاء، أبتلع المشهد الطبيعي معها، أحمله وأذهب، مخلفة نفسي فيه، بينما نتوجه في الأتوبيس لمشاهدة "صهاريج ملكة سبأ"، صهاريج الماء الضخمة التي تعود إلى القرن الأول، محفورة في جزء كبير منها، في الصخور نفسها، ومتصلة فيما بينها، بقنوات داخلية، تدور على حافة الوادي، والتي تُشكِّل حالياً الجزء المركزي من حديقة "الطويلة". وأواصل مشاهدة ساحل "جولد مور"، حتى عندما نصل إلى المطار في انتظار الرحيل.

تأخر رحيلنا: نسي "عباس" آلات التصوير في الفندق وعليه العودة لإحضارها. الآخرون، بقينا في صالة الانتظار نتناول مشروباً، أتجول وألقي نظرة شاملة: كلهم مصابون بالإعياء، كثيرون منهم جلسوا على الأرض، ودون أن أقول شيئاً، أنظر إلى الفضاء. مثلاً، "أمل"، فقدت عيناه البريق، و"قاسم"، الذي يجلس إلى جواره، و"فيلكس" و"ثيليا" اللذان بلا شك، كما توقعا لم يتمكنا من النوم. ربما قليلون من ناموا هذه الليلة، حتى "علي"، يبدو متعباً. ولكن ليس كذلك "محمد" الذي يتحدث مع شخص طويل القامة، بلحية، لم أشاهده من قبل وحتى هذه اللحظة. "كيف ترين قائد طائرتنا؟" تقول لي "ثيليا" مشيرة إليه عندما مر إلى جانبنا. "فيه قليل من الملامح الصينية"، أقول. "لكنه يستحق.."، تقولها بلكنة مصرية، وننفجر ضاحكتين، وإن كان الوقت لم يحن بعد للضحك. "قبل الخروج"، أقول لها، "ذهبت

لمشاهدة المحيط في النهار. لم أشاهد في حياتي أكثر زرقة مثله، ولا شاطئاً كهذا." لا أنطق اسم "جولد مور".

-57-

**آلاه لي لي آلاه لي لي[13]**
**وأنا عبد الغزالي.**

أنا أغني بالعربية. "محمد" الذي جلس إلى جواري في الطائرة، واتته هذه الفكرة السعيدة: تعليمي ولو هذين المقطعين، من تلك الأغنية البسيطة جداً التي تنتهي بتلك الكلمات: "أنا عبد غزالتي"، يجعلني أكررها مرة ومرة إلى أن أحفظها. بعدها يحاول مع أغنيات أخرى أكثر صعوبة، لنعود بعدها إلى الأولى، والتأكد من أنني لا أخطئ. يحدثني أيضاً عن مشروعاته، عن الجماعات الدولية التي يعمل معها، والمؤتمرات التي ينظمها. أستمع إليه، أعتقد أن الصدفة حكيمة، سماع هذه الأشياء، ووجوده إلى جواري يبعدني، ويحررني بشكل كامل من "أمل" الذي يوجد في الصف الأمامي تماماً، على الجانب الآخر، وعلى الرغم مني، بدأ يثير فيّ الحنق من جديد. لا أعرف كم من الوقت سأقاوم هكذا، رغم أنني أعرف أن هناك دفعة كامنة، يمكنها أن تأخذ المبادرة، لأنه من وقت لآخر، فإن احتكاكاً طفيفاً جداً غير مقصود من جانب أحد الرجال يمكنه....

(13) آلاه لي لي: مدخل للمغني الشعبي عن بدء الغناء، وكذلك يمكن نطقها: ألا يا ليلي، بالطبع مع مدات موسيقية – (المترجم).

فكرة أخرى لـ"محمد": يُخرج كتاباً ومن خلال الصور يحدثني عن مدن "حضرموت" التي سنزورها. يطلب مني أن أركّز على بعض الآثار المعمارية: القلعة، وبعض مباني "سيحون" الأخرى، مقبرة "أحمد بن عيسى"، ومئذنة "المحضار"، "تريم"، وأيضاً ناطحات سحاب "شبام": مدينة كاملة من البيوت المبنية بالطوب، من خمس أو ست طوابق موزعة على جانبي النهر، ومصورة في ضوء الغسق. يمكن من النافذة رؤية صخور ممتدة، مجاري أنهار جافة، مساحات من الحجارة والأرض الممتدة بلا نهاية. "عدن" بعيدة الآن والاكتمال اللذيذ يحل محله الإحساس بالفقد: "قيس"، الذي لن أراه مرة أخرى. وأيضاً ذلك الظل الذي يحوم من حولي يبعده "محمد" بتكرار الأغنية. وفجأة أسمع "ثيليا" وآخرين يبدءون في غنائها. منذ تلك اللحظة يغنون، والآن، يغنيها "عباس" وحده، بصوت ثقيل أحادي النغمة، وبطبيعية كبيرة، كما لو كان لم يفعل شيئاً آخر طوال حياته.

ويبدأ الهبوط البطيء للطائرة، في تلك الأرض الرملية الواسعة، بلا حدود، ترتسم بوضوح أكثر التناقضات بين النتوءات والانحدارات التي ترسمها الجبال الكبيرة، إنها قطع ضخمة، وفي العمق، متلبس بين جانبين، يوجد: نهر طويل جداً. والمدن التي تكاد تضيع بين الجبال. والآن أكثر قرباً، يمكن تبين أن مجرى النهر متسع، وأن هناك حياة، وحدائق نخيل. الهبوط يجري في دوائر، قائد الطائرة يرينا المنطقة، ونرى المدن الثلاث التي تعرفت عليها بفضل الكتاب: أرى قبة زرقاء، فأعرف إنها "سيحون"، وأرى جانبين من ناطحة السحاب المتقنة على جانبي النهر، فأعرف إنها "شبام". يخلق

الإنسان الجمال في أكثر المناطق صعوبة، في الصحراء، يتبع النبض الذي يثيره الفراغ، فيتجه نحو العمارة الفضائية. أعرف أن الفن هنـــا هو العمارة، وأن كل هذا الفضاء المتسع من الأرض البيضاء، يخلق نتوءات من الطوب، تتخفى في الجبال.

-58-

في "سيحون" لا يوجد أتوبيس مكيف الهواء ولا عصائر فاكهـــة، لديّ زجاجة ماء أخذتها من الطائرة، الحر لا يهمنـــي، أجلـــس إلـــى جوار النافذة المفتوحة، أستمتع بتيار الهـــواء، والصـــمت، وعزلـــة الشوارع الكاملة. نذهب إلى الفندق حيث علينـــا الانتظـــار أيضـــاً، الصالون مظلم، ومليء بالستائر المعلقة علـــى الحـــوائط، وكراســـي ومساند بلا ترتيب ولا تنظيم، مناخ فوضوي. أرى البعض يخرج إلى الحديقة الخلفية فاتبعهم. إنها حديقة صحراوية: الأرض جافة، ونخيل محمل بالتمر، بضع أشجار ليمون، وأشجار أخرى نحيلـــة كرجـــال المدينة تماماً. يقترب مني "علي" وفي يده ليمونة صغيرة جداً يقـــدمها لي. أبتسم. "علي السيف"، أقول. يشير بيده إلى التمر، يذهب بعـــدها إلى النخلة، يأخذ تمرة ويقدمها لي أيضاً. و"محمد" الذي كان على بعد خطوتين، ما إن يراه، حتى يهمس" "أنا عبد غزالتي". نضحك، وندور معاً دورة بالحديقة.

ننام هذه الليلة في غرف ثنائية وثلاثية وحتى سداســـية: بـــالطبع المرأتان معاً، إضافة إلى أنهما وحدهما في الطابق الأخير. يعطوننـــا

المفاتيح، نترك متعلقاتنا، ونذهب إلى المطعم، عند الدخول نلتقي "صلاح" و"أمل" و"قاسم" يجلسون معنا. و"أمل" هو أول من يغازل "ثيليا" فتقابله بتعبيرات الغضب على وجهها الهادئ. يغازلها بالعربية ويتبعه "صلاح"، ويعود بعدها "أمل"، وهكذا يواصلون تبادل الغزل إلى أن يقدموا لنا القهوة، وهم يقولون بين الضحكات كلمات لا أفهم منها سوى اسمها. تلمع الآن جميع العيون. وأنا أحاول الكلام مع "قاسم" للهروب من الغضب الذي يوشك على الانفجار داخلي. ورغم هذا أغرس عيني في "أمل" كالشعاع، لكنه يتفاداني. وعندما نخرج يترك "صلاح" يتحدث مع "ثيليا" فيما يختفي هو.

أشعر أنني وحيدة في الأتوبيس الذي يأخذنا إلى "شبام"، لا أريد اقتراباً بشرياً. أريد ألا يقترب مني سوى هذا الحر الذي يهزم الآخرين فيما ينعشني أنا، هذا الهدوء الكامل الذي يسيطر على مدينة "سيحون" التي يُحيي شكلها المهجور كل الأسرار.

–59–

يداه تضغطان عليّ باتجاه الحائط، وشفتاه كالرصاص على شفتي، وبطنه حاجز يخنقني، وعضوه شعلة من نار تخترقني، مصلوبة عليه، غارقة في وحله، وممزقة بسوطه البركاني، منطرحة ومصلوبة، مهزومة تماماً، والحد الفضي على الجبهة، والشعر على الوجه وعيناه اللتان لا تزالان تقطران بالغيرة... ثم الجسد عارياً في بياضه، مرشوقاً بالورود الحمراء، والورود الأرجوانية، دماء

الرغبة، ورود تتدفق جداول مؤلمة، مراراً، بينما أعمدة الزوايا ترفع زهوراً، والفم يزفر بالصرخة الصامتة، الجارحة.

-60-

يفتح الحر الجسد على وحشة تلك الجبال الرملية المتماسكة، على تلك الآفاق المائلة إلى البياض، التي تقاطع فجائياً دوامات النخيل، الذي يرتفع على الأرض العطشى، وتفتح عيني كنبعين. أبكي، أبكي أمام النخلات كما لو كانت تطلب أن أتحول ماء، أبكي طوال الطريق، تقريباً لأنني لست عطشى، لأنني أجهل طعم الملح في الشفتين، طعم الشمس المحترقة في الشفتين، طعم التراب والأحجار. أبكي لأن جرحي ينفتح مع السكون، لأنني أشعر فجأة أنني لا أفهم كلمات "قيس"، لأن اللؤلؤة هربت من بين يدي، لأن قوس قزحها يبعث بأشعته من مسافة لا تُدرك، شرقه يتبخر. من الذي غنى إلى جواري، وحملني بصوته إلى الأفق، أعاد تكويني في رمال "جولد مور"؟، من الذي فتح لي قلب النار؟، هنا النخيل وأنا أستسلم لأشواقه المتحركة كما في الماء. يمكن رؤية بعض المباني من الطوب والضوء الخافت، من جديد، يبتعد. وسرعان ما أذهب وسيكون الصمت لؤلؤة العيون التي تخترق زجاج لحمي، دون أن يستطيع أي شيء تهدئة كينونتي، التي تحولت إلى أخرى.

أبداً لا يمكنني أن أرى بمقلتيه، أن أذهب إلى قوسه البني، أن أرتدي جسده النحيل، ولا أكون في مهارته متجولة في شوارع

السوق، عابرة باب اليمن. أبداً لن أنتظر في الفناء أن تعجن النساء، وأن يطرحن العجين، وأن يضعنه في الفرن الطيني، ثم بمهارتهن، يضعن الخبز في الأطباق الواسعة. لا يمكنني أن أرى نفسي من عيونهن، أن أرى الأجنبية، الحنين إلى أن أكون واحدة منهن، ذات العينين الزرقاوين، لا ترتدي الحجاب. أبداً، لا توجد وسيلة تسمح بهذا التحول، تتجنب في نقطة واحدة ذلك الخندق المستحيل.

–61–

الحب يخدع، ينشر صوراً مبتذلة، ليصيب بالجنون الأرض المختبئة في شكل واحة، وتستجيب الشقوق للبكاء لعلها تخفف عنها، كما تستجيب الطيور للسهول عند أول قطرات للري، وإن كانت لا تستطيع إسكات أول موجات الجسد الحبيس في جمره. وتخفف دموع الجَمَال الراكد المتجمد في اشتياقه، ولذلك فإن النهر يرفع فجأة روحي فاستنشق بعمق، أخرج ذراعي من النافذة، خلال مرورنا، كي أشعر بالتيار، وعند الخروج، أريد أن أدخل في أحضانه، مثل كل أولئك الرجال، وهؤلاء الأطفال الذين يغمرون أنصاف أجسادهم في تياره.

"إياكِ أن تفعلي هذا!"، تصرخ "ثيليا"، التي فهمت حركتي وجاءت مسرعة لإيقافي. إنها محقة، فنبقى وقتاً طويلاً في صمت أمام هذا المشهد. للماء لون الأرض لكنه فضي بفعل الضوء، والسماء تلمع بالأبيض الفضي، فيما الجبال في العمق تعكسها،

وتصنع أساساً لناطحات السحاب على الجانب الآخر. وفـــي الأمـــام. على الشاطئ تجمع من النخيل، والرجال والأطفال في الماء..، ذلـــك المشهد..، ووجه "قيس"، يظهر فجأة، ذلك الأنف المـــتقن، وعينـــاه، بشرته، وتأدبه.. نعم، أنا أراه الآن، كل شيء يشير باتجاه الهند، هذا هو الفارق بين "قيس" و"علي". على أي حال فإن الرجال جميعاً هنـــا يشبهون "علي".

لا أريد أن أبتعد عن رؤية النهر، إلى درجة أنه يناديني، أشـــعر أن الدخول في مائه سيكون الخطوة الأولى للانتماء إلى المكان. إنـــه شكل من الحب الذي يغزوني، ولهذا أشعر بجناح الموت ("حضـــور الموت"، يعني حضر الموت). الحياة هنا، في "شبام"، هـــي حلمـــي. أدير ظهري الآن للنهر وأتوغل في المدينة.

لقد تأخرتُ، لكن يخرج "لويس" و"فيلكس" مـــن حـــانوت حيـــث يبيعون المرطبات، وأبدأ معهم المغامرة. "هذه مدينة هادئـــة"، يقـــول "لويس" عندما يرى الماعز، وديـــوك المصـــارعة تغـــزو البيـــوت والشوارع، ويمتزج الأطفال معها، يجلسون على الأرض إلى جـــوار بقاياهم. والعفونة..، لا تكاد عيون هؤلاء الأطفال تختلف عن عيـــون الحيوانات، ينظرون كما لو كانوا يجهلون النطق، كمـــا لـــو كـــانوا ينتمون إلى سلالات أخرى. يحدث الأمر نفسه مع الرجال والنســـاء. لكن هؤلاء الرجال هم من بنوا ناطحات السحاب، هم مـــن صـــنعوا تناسقها، من غرسوا طوابقها العليا أو على الأقل نهاياتها، هـــم مـــن زخرفوا مشربياتها، إطارات نوافذها، شرفاتها الطائرة والأبواب...

يعود تاريخ المدينة إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد. والنـــاس، أيـــن هم؟، نرى قليلاً من الأشخاص الشيب خلال صعلكتنا في الشـــوارع والساحات. وأنا أسمح للصـــمت أن يتملكنـــي، والنـــور المرهـــب، والرائحة النفاذة، والنظرات التي لا عمق لها، الجحيم. هـــذا المكـــان جميل ومرعب. الحياة هنا، في "شبام"، إنه حلمي، لكني أعرف أنـــه حلم مستحيل. شهر واحد فقط، الحياة شهر هنا، رغم أنه غير كـــاف لأن ما أريده هو شيء لم أحصل عليه مطلقاً. أريد هذه الحرية في أن أكون الطبيعة، تجاهل زيف ما هو عقلي خالص، تجاهـــل مـــا هـــو وضعي، أن أحس هذه الأرض، إلى جوار الماعز، الدخول في النهر حتى الرأس، استقبال ماء المطر كخير أعلى ولـــذة عليـــا، وربمـــا، أستقبل في جسدي الحب الأعمى، الشعور به يغزوني، يســـكن فـــي داخلي، يُشكِّلني.

نحن نرى النهر، وادي "حضرموت"، من أعلى منحدر، ثلاثتنـــا، وَحَّدنا السير الصامت، شعرنا بزمن واحد، بانكماش واحد، والاحترام العميق لهذه الحياة، لهذه المحمية العذراء، التـــي لا يهـــددها ســـوى القذارة والمرض والموت..، الضوء يميل إلى الجانب الآخر، وإلـــى جانب النخيل، رجال يصلّون باتجاه الكعبة. نهبط ببطء حتى الشاطئ. تتحدد السور القرآنية في ذهني، سورة التوبة. التي اســـتمعت إليهـــا مرات كثيرة. وأرى أن الصحراء مكان للصـــلاة، فضـــاء طـــاهر، إمكانية بلا حدود. لكن تقترب زوبعة هوائية فنجري، نجري.

-62-

حل الظلام بسرعة كبيرة، وأنا وحيدة من جديد في الأتـــوبيس، وفي الخلف حتى أستسلم أفضل للتأمل، لكن لا شيء يمكن مشـــاهدته

عدا النجوم في السماء. أحاول تخيل النخيل، لكن أتمكن فقط من الخروج من نفسي إلى الريح، وأستقبل على وجهي بعض نقاط المطر. أسمع "عباس" يغني ثم "محمد" وبعدهما أحد الإسبان يبدأ رقصة، ويتبعه الآخرون. أنا لا أستطيع الغناء. أفكر في "عدن"، كيف يمكن أن تكون بعيدة إلى هذا الحد؟، لماذا لم تحتضني تلك الأرض السوداء التي انطرحتُ فيها بحب، حيث خمد تمردي كله؟، أشعر الآن بالحذر، يُقَطّعُ كل زواياي الحادة، وناطحات سحاب "شبام" والنهر.. من الذي يغني في هذه اللحظات؟، "أمل"، إنه "أمل"، بصوته المشروخ، لا أستطيع احتماله. يغني بهدوء كبير، دون تردد، لا يبدو عليه أي أثر للندم، أي أثر يدل على أنه سيعتذر، على العكس، تحركه رغبة في جرحي، ولذلك خلال الطعام بدأ تلك اللعبة مع "صلاح"، وربما كان يُعد... لكن هذه الليلة "ثيليا" وأنا، سننام معاً في الغرفة نفسها، ولكن من يعرف، في الليلة السابقة كانت الصحراء والنخيل الأخّاذ. الهجوم عليها، وإجبارها أن تقول شيئاً، سأهجم عليه أنا هذه المرة، آخذه على غرة، أدفعه باتجاه الحائط وفقط بالعينين...

عندما وصلنا كانت ساعة العشاء قد حانت، لكن "ثيليا" وأنا صعدنا وأخذنا حمَّاماً، وغيَّرنا ملابسنا. أعلنوا عن حفل رقص شعبي من المنطقة وتقول هي إنه لا شك سيستمر حتى الفجر. تجذبنا المسألة. عدنا إلى الهزل مرة أخرى بينما كنا نتجمل، نكحل عيوننا، نتبادل العطر. من الشرفة، التي تطل على الحديقة، يمكن رؤية الجبال تحت ضوء أرجواني وشكل بيوت المدينة المظلمة.

"لن نرى "سيحون"، فيما يبدو"، أقول. "إلا إذا هربنا وبقينا بلا عشاء"، فتجيب: "ليست فكرة جيدة"، يدهشني احترازها مرة أخرى،

لكني لا أتراجع وأجلس في المطعم في مواجهة "أمل"، وهكذا نكـــون من جديد وجهاً لوجه: "أمل" وأنا، "ثيليا" و"صلاح". وتتكـــرر لعبـــة منتصف النهار، تزداد حدة بفعل المزيد من البيرة والخمود بعد يــوم حافل.

الحفل سيكون في فندق آخر، وأذهب أنا و"فيلكس" ســيراً علـــى الأقدام عبر الطريق الخالي والمُضاء بشكل جيد، حيث يظهـــر مـــن وقت لآخر بعض الشباب بـــدراجاتهم الناريـــة. هنـــا أيضـــاً، فـــي الصحراء، فتى من هؤلاء بشعره الطويل يشعر بالحاجة نفسها إلـــى الإزعاج، بصوت دراجته النارية تماماً كالشباب الغربيين. ولكن مـــا إن مر حتى حل صمت تام، بلا حدود.

في هذا الفندق هناك حمَّام سباحة وحوله طاولات ونخيل، وفـــي أحد جوانبه مساحة أكثر ارتفاعاً مخصصـــة للموســـيقيين. بمجـــرد الدخول أنتبه أنا إلى الوضع: الإسبان على اليمين، والعـــرب علـــى اليسار، وعلى الطاولات المواجهة مزيج من الاثنين: "محمد" و"قاسم" و"لويس" وقائد الطائرة. أرى "ثيليا" بين "أمـــل" و"صـــلاح" وأذهـــب للجلوس في مواجهتها، إلى جانب "عبـــاس". أنتبـــه إلـــى أن اللعبـــة مستمرة، ولكن لا أعرف إلى أي نقطـــة وصـــلت لأن "أمـــل" كـــان يضحك، وعندما رآني خبأ نظرته الكابية، بينما تبدو الدموع في عيني "صلاح". يحدثني "عباس" ساخراً كالعادة، يقول: "بيتي لـــيس كبيـــراً، على أية حال أنتظر أن تأتي، أنا لدي زوجتـــان فقـــط، ويمكنـــك أن تكوني الثالثة وتعيشين معنا، ومعك أزواجك الثلاثة، تكون لك نفـــس حقوق أزواج نسائي وأنا لي حقوق نساء أزواجك، أنتِ تعـــرفين أن

الإسلام يسمح بذلك. وبذلك نتجنب الرتابة. أما بالنسبة للأولاد أؤكد لك أيضاً أنه عملي جداً...".

خرج الموسيقيون: طبلتان وناي وبعض الدفوف. عازفو الدفوف يستخدمون عصياً صغيرة، والطبلتان صغيرتان، ومعلقتان إلى جسدي عازفيهما، وينقران عليهما بأيديهما من الجانبين. يبدءون في عزف إيقاع بسيط. تظهر امرأتان بملابس فضفاضة وبراقة وطويلة، إحداهما فستانها مفضض، والأخرى بفستان من الوردي والذهبي، الأولى شاحبة ومزينة الوجه، والثانية سمراء، كلاهما تغطي رأسها عدد من مناديل الزينة، على الطريقة "المايوركية"[14] الإسبانية، المنديل أسود، ومن حول الوجه زينة ملونة من ألوان عدة، وتحت كل منها، على الظهر، تمتد ضفيرة طويلة من الشعر المستعار معلقة بها زينة. تبدآن الرقصة وأيديهما إلى جانبيهما، والرقصة ساكنة تقريباً، تتحركان لكن حركتهما تكاد لا تُرى. إنه شيء محكم يقشعر له جسدي. يزداد الإيقاع دون أن يتغير العزف، ولا هذا القلق الذي يدفع به إلى الروح وينبهها. ويتداخل الغناء مع عزف الطبلتين والدفوف ويرافقه التصفيق باليدين، ويشارك فيه الجمهور. تهبط الراقصة الأولى وتتجه إلى أحد المتفرجين، وتأخذه إلى الحلبة وتراقصه. بعدها ترافقه إلى مكانه، بينما تفعل الثانية الأمر نفسه مع رجل آخر. وهكذا تقومان بهذا العمل باحترام كبير وتواصلان إخراج المتفرجين للرقص. يرقص "محمد" بأناقة، و"أمل" ببلادة، و"ثيليا"

---

(14) نسبة إلى جزيرة "مايوركا" الإسبانية الواقعة في البحر المتوسط، شرق الشواطئ الإسبانية. (المترجم).

بمهارة، أما "عباس" فهو مليح وخليع..، تنفذ الموسيقى إلى الجسد، إنها رقصة البداية، وأكثر نفاذاً، وجوانية عن تلك الرقصة التي شاهدناها في ليلة عدن، إنها رقصة عميقة، تدفع بك إلى الظلال، بلا شك. خطوات هذه الرقصة بسيطة، وقصيرة الحركة نحو جانب أو آخر، خطوة للخلف... العيون تسيطر على الحركات.

أخرجتني الراقصة التي ترتدي الفستان الوردي والذهبي، وجهها ضاحك ووجنتاها ورديتان بفعل الحناء، وتنظر إليّ بتعاطف كبير، انتبهت هي إلى أنني أتبع خطواتها، فقررت المخاطرة بإدارتي عدة دورات معقدة، دائماً يداها إلى جانبيها، والجسد متماسك. من القدمين الثابتتين على الأرض، تصعد الومضة، يتوزع العرق، يغطي كل أجزاء الجسد، ولكن الإيقاع الأقوى، هو التصفيق، ودقات الطبل. كل ضربة باليد على الجلد تنغرس فيّ تماماً، كانغراس نظرات رجال صنعاء، وأشعر بالإحساس نفسه، الذي ينزلق داخلي ويتصاعد. وعندما أستدير أرى "أمل"، أتحداه ويتحداني بالنظرات.

عندما أعادتني الراقصة إلى الطاولة، كان "أمل" قد اختفى، و"ثيليا" أيضاً. لكن لا، هي تجلس هناك إلى الطاولة الموجودة في العمق، تتحدث إلى قائد الطائرة. يصفق لي "عباس". ويبدو الحزن على "صلاح" لكنه ينضم إلى المصفقين. يتجه بعض الإسبان نحو الباب. أنا على العكس، أتمنى ألا تنتهي هذه الرقصة، أتمنى أن تمضي تلك الرقصة التي تخترقني إلى نهايتها. الإيقاع وحرارة المناخ يتداخلان ويتجمعان، ويشعلان الجمر، وأشعر أنه ما إن يتحرك هذا السكون الظاهري، فإني سأحترق حتى النهاية. لو أن

"قيس" كان هنا...، لكن "قيس" رقيق أكثر من اللازم، ومحافظ أكثـــر من اللازم... ، ما هي رغبتي الحقيقية الآن، أن أرتمي بين ذراعيه، وأفنى في البكاء أمام رؤية الواحة، وأغرس الجنبية في بطن "أمل"؟، يهرب "أمل" مني لأنني مستعدة لسفك دمه. يهرب مني "أمل"، لكـــن إلى حين...

ونرقص الآن، يرقص جميع الحاضرين، ونختلط معاً، ندخل في الجنون المتصاعد. وفجأة أجدني أمام "علـــي" الـــذي يقتـــرب منـــي بخطوات تكاد لا تلحظ، أتبعه محافظة على التيارات التـــي تختـــرق ظهري والصدر. هذه الرقصة تدعو إلى التحول، يتحول الجسد كلـــه إلى تيار من الحب، بلسم ساكن ينتشر، محطماً الحدود.

-63-

"أمل" يعلوني، يضيعُ فيّ، ثقل غير مرئي، عيناه وشفتاه جـــذوة من جمر، وشمع محترق في كتفي وصدري، بينما لحمهما متماســـك كالتمثال. لكنني أستل الخنجر، وأغرسه، فيسقط رأسه علـــى عنقـــي، وأشعر بحرارة الدماء على جلد بطني العاري. ثم أدفع الجسد إلى أن ينطرح على الأرض ظهراً. والآن أنا من أكون فوقـــه، أُقبِّـــلُ فمـــه بعنف، ممتصة آخر حرارة في شفتيه. وعيناه المثبتتـــان لـــم تعـــودا تنظران، عضلاته فقدت قوتها، تحول كله إلى مـــادة لا حـــول لهـــا، ولكنها لا تزال تحتفظ بجمالها. أتأمله، أتمنى طعنه بالخنجر مـــرات ومرات، لكني أعانقه بعنف مرعب، وأغطيه بالبكـــاء والارتعـــاش.

أرتعد بشكل متصاعد، منهارة كلياً على لحمه المدمى، فيما يظل هـو طرياً وساكناً.

-64-

"أمل"، لماذا؟، وكيف؟، كيف الدخول فيـه؟، وكيـف الاحتيـال عليه؟، وتقريبه واقعياً لبرء ذلك الجرح، ليمحو نهائياً العلامات التـي تركها على جسدي؟، لكن لا، هو عنيد، قاطع طريق، معتـاد علـى السرقة، وعيناه..، عيناه وليل الصحراء، يستقطران مني خمراً متألقاً بدأ يسكرني.

-65-

أهلاً يا "علي" لإنهاء هذه الرقصة، "علـي"، الإيقـاع، النخيـل، الأصوات الحادة في زغرودتها المتواصلة، دقات الطبـول، وذلـك الناي الذي يشبه المزمار، وهذا التبادل الـذي يضـعني الآن أمـام "فيلكس"، ومن بعده "ثيليا"، وقائد الطائرة، و"محمد"، و"عباس" الـذي يستدير في حركات لولبية، والراقصة الأولى، التـي تحـافظ علـى وجهها الشاحب الصامت، و"قاسم"، و"صلاح"، والراقصة الثانية التي تبتسم، ومن جديد أمام "علي". ونشبك الآن أيدينا جميعاً ونُشكِّل حلقـة دون أن نتخلى عن الإيقاع. ويحتوينا المكان جميعاً. ومـن يعزفـون ويغنون يرقصون أيضاً في منتصف الدائرة. ونقوم بحركـة انفتـاح

وانغلاق كالقوقعة، انقباض وانفراط قلب واحد. نحن جميعاً نحن، أجسادنا على استعداد تام لتضم الآخر، في هذا الإيقاع السحري الذي يُشكِّل رابطة، ونفساً واحداً.

-66-

تنام "ثيليا"، مستلقية على ظهرها، جسدها ثابت، عدا أحد ذراعيها واليد التي تعتمد على حجرها، الخصلات الشقراء منتشرة على المخدة، الهيئة النحيلة في قميص النوم الأبيض المطرز بشرائط على الكتفين، وقدماها عاريتان. تنام "ثيليا"، تنام في طمئنينة، التنفس العادي، يرفع صدرها من وقت لآخر، ويُحرِّك كتفيها وبطنها حركة خفيفة لا تكاد تُرى، نور الجبال الذي يمرق عبر باب الشرفة المفتوح، يصبغ هيئتها بالبنفسجي، ويمنحها خفة مرمرية. تنام كما لو كان الحصار الذي تعرضت له طوال النهار لم يصبها، كما لو كانت الرقصة، بعد الدوار، وصلت إلى نهايتها المحبوبة. بالطبع توقفت أنا خلال العودة لبعض الوقت، والتي سرتها على قدمي، كما حدث خلال الذهاب، لكن هذه المرة مع "فيلكس" و"محمد".

لقد كان "محمد" من قال إن لون الجبال ليس بسبب انعكاس ضوء القمر، بل إنه نابع من إشعاعات معادنها، ودرنا دورة صغيرة لنشاهدها بشكل أفضل. مدهشة تلك الحزمة الضوئية النابعة من الأرض. وبقع البيوت السوداء على سفحها لا تبدو شيئاً يُذكر، وسواد السماء ليس أكثر من خلفية للنتوء الحي والعظيم. لا، اللون ليس

بسبب القمر لأنه لم يكن هناك قمر، وإن كانت هناك نجوم تتقاطع في بعض الأماكن، تنتشر في السماء كأفرع الأشجار. طائر بريش بُني، أصغر قليلاً من طائر الشحرور تَخبَّط تائهاً، إلى أن سكن تماماً على الحائط. اقترب منه "فيلكس" ليتأمله. قال: "ماذا يفعل في مثل هذه الساعة؟". أجابه "محمد": "ربما ما تفعله أنت، إنه يحاول تجنب حر الليل". وجلسنا لبعض الوقت، فقدنا الإحساس بالزمن.

"ثيليا" تنام، عندما وصلتُ، كانت بقميص النوم. فتحت لي الباب، كانت قد أغلقته بالمفتاح. أخذت أنا حمَّاماً واضْطَجَعتُ، وربما تمكنتْ من النوم لساعة، لكن لا أعتقد هذا، أستطيع القول إنني كنتُ أرقة في كل دقيقة، فقررت ارتداء ملابسي من جديد، والخروج إلى الشرفة. لا تزال الشرفات الأخرى خالية، وتسير الساعات في طريقها. ينام الرجال في الطابق الأسفل، الصمت تام. "من قال إن الصحراء باردة في الليل؟، هنا لا، الحر لطيف، ومُمتع، محاولة تخيل النخيل وأشجار الفاكهة في البقعة السوداء الموجودة هناك في الأسفل، التمعن في هذا السكون المطلق، هذا الخرس الواضح كموجة صوتية تنتشر إلى ما لا نهاية. لا شيء يتحرك، لا أحد في الحديقة، لا أحد ساهر مثلي، بجسد لا يزال مسكوناً بالقشور والأخاديد المليئة بالصدى.

أدخل من جديد وأظل أتأمل براءة "ثيليا". فجأة أراها مع قائد الطائرة، تجلس إلى الطاولة الموجودة في العمق، ثم أفتقدها لأنني أبحث بعينيَ عن "أمل" في جميع الأركان. غير موجود، لم أرَ "أمل" بعد ذلك. عند الخروج وقف بعضهم في انتظار السيارة، آخرون عادوا سيراً على الأقدام، انضممت أنا إلى إحدى المجموعات وأخيراً

بقيت مع "فيلكس" و"محمد" وانفصلنا لنتأمل الجبال، قممها البنفسجية التي تشبه حد الخنجر. تتملكني من جديد الفكرة المتسلطة: "أمل"، لماذا؟.

-67-

تُسمع أصوات العصافير، فأخرج مرة أخرى إلى الشرفة، الآن يمكن رؤية الحديقة بوضوح، وكذلك خلفية المدينة، كل شيء ملتف بالأزرق، بلا نتوءات. التحول من الظلمة إلى النور كان سريعاً، إلى درجة أنه هرب مني تأمله، فقط غناء الطيور في الصمت الكامل يؤكد الإحساس بالشروق، لأن النور يتحول فجأة إلى الأصفر الشاحب. لا أرى الشمس فأقرر الخروج، التنزه في الشوارع، بقيت ثلاث ساعات.

أُغلِقُ البابَ بهدوء كبير، وأهبط الدرج. يدخل الضوء من النوافذ الكبيرة، ويضيء المشهد الساكن تماماً. هناك حمّامات بمرايا إلى جوار غرف الطابقين الثاني والأول. كل الأبواب مغلقة، وتوقعت أن يكون الباب الخارجي مغلقاً أيضاً. فجأة، عند آخر درجة، يظهر "لويس" بروب النوم. "إلى أين تذهبين؟" همس، "أريد أن أرى المدينة"، أجيب. "مع السلامة"، وأجري إلى أسفل الدرج. بعد الممر المظلم، يظهر النور، النور الخارجي. أتوجه إلى الخارج.

تواصل العصافير غناءها الصباحي. الشوارع خالية تماماً والحر كما حر الحادية عشرة صباحاً. أشعر بأنني سعيدة، حرة بالبدء في

الصعلكة المبكرة بالمدينة الخالية. ذهب الليل، وخلال السير بدأ جسدي يستعيد توازنه، وهدأ العقل، بقي خالياً في لحظة واحدة: يتملكني الجهل. لا أعرف شيئاً، لا شيء عني، لا شيء عن "قيس"، ولا شيء عن "أمل". هذا الحر الذي يسكنني، إنه حر مستمر منذ عدن، إلا أنه، "قيس"، هذه الأماكن الخالية هي "قيس". أريد أن أعرف حقيقة "قيس"، تماماً كتشوقي للحديث المتعمق مع "أمل".

أقتربُ من المدينة شيئاً فشيئاً، حفظت أولاً طريق العودة إلى الفندق ومن هناك أسترشد بالجبال وبتلك البيوت الموجودة في الخلفية. هذه المنطقة هي المحيطة بالمدينة، حدائق كثيرة بها نخيل، بعضها محمّل بسباطات التمر التي تلمس الأرض. أعبر تقاطعات، متأملة البنايات القليلة التي أمر بها، إلى الحواجز. أغامر عبر أحد الشوارع وأخرج إلى مكانٍ خالٍ. أرى في البعيد امرأة تعمل في حقل جاف. تنظر إليّ للحظات ثم تواصل عملها. أبتعد دون أن أنتبه، أعود في الشارع نفسه إلى الساحة. أقول إنه ميدان ومكان من الفضاء الترابي الصافي، وحائط من الطوب شبه دائري، وثلاث طرقات محاطة بالبيوت. أتخذ الطريق الذي يأخذني باتجاه المدينة، لكن حدائق النخيل تتواصل، وفي إحداها مجموعة من الصبيان، يصعدون الجذوع، وآخرون في أعلى النخلات يقطفون التمر. الصمت الذي يلف هذا المشهد متفجر، عجيب. أولئك الصبيان في الأعلى تبدو صورتهم غير حقيقية، ناتجة عن سراب، لكن الحقيقة غير ذلك. لا أجرؤ على التوقف لأتأملهم، أمرٌ كما لو لم يحدث شيء. وتتواصل الأشجار الغارقة في أرض بيضاء تقريباً. أرى بناية

صغيرة بمئذنة، إنه مسجد، وبعد ذلك حائط متقن البناء. وأصل إلى نقطة أخرى تتفرع منها شوارع وطرق عدة.

حانت الساعة السادسة. أجلس للحظات، وأعبر ذهنياً طريق العودة الذي تبعته حتى الآن. الأماكن التي ركّزتُ عليها، للتأكد منها: لن أتوه. يخرج رجل من إحدى البوابات، وينطلق، يراني، ويواصل طريقه، أشعر بإغراء الصعود إلى الجبل، أحد الطرق يبدو أنه يأخذني إلى السفح. أواصل هذا الارتفاع، ولكن سرعان ما يختفي الطريق في ممر حجري. أعود إلى الخلف، أعود إلى تقاطع الشوارع، أواصل من جديد باتجاه المدينة، وألتقي رجلاً آخر لا يهتم هو الآخر بوجودي. أجلس سعيدة، وفجأة أسمع الفرح من حولي: أنا في الساحة، وهناك أطفال يلعبون. الأطفال يقتربون مني، يحيونني: "السلام عليكم"، "السلام عليكم"، وأنا أجيبهم. أشعر بالأسى لأنني لا أملك أقلاماً ملونة أهديها لهم. "السلام عليكم" كل الصغار الذين ألتقي بهم يحيونني، سعداء. إنهم مختلفون عن الذين رأيتهم في "شبام": يرونني ويلتفتون. "السلام عليكم".

ينادي المؤذن إلى الصلاة، وأنا أسرع الخطو، شخص ما يتجه نحو المسجد، وأعرف وجهتي لأنه بالقرب من المئذنة توجد القباب. رغم كل شيء ألتقي بطفل، لكنني الآن في شارع حقيقي من المدينة وأرى المئذنة من بعيد، أسير نحوها بلا توقف. وأخيراً، عندما أصل إلى القبة الزرقاء، لا أستطيع التوقف. أتأملها لبعض الوقت قبل البدء في رحلة العودة ، أملأ عيني بلونها الذي يشبه ماء البحر.

-68-

فجأة يتحول كل شيء إلى ينابيع، حقول قمح، غذاء وفير، آفــاق بلا حدود، مساحات واسعة من الهواء الطازج، أزرق، كـل الـدماء تنتعش، تستقبل فضائل الطهارة، تجدد كثبانها، توزعها في الجسـد، كل شيء مشترك، إنه الاتزان.

-69-

لماذا تحول هذا الامتلاء من جديد إلى هدوء؟، شيء يحملني بينما أعبر فناء المدخل حيث توجد مجموعة من اليمنيين يتحدثون، شـيء ما يواصل دفعي داخل الممر المظلم، يجعلني أترك من خلفي الطابق الأول، حيث أرى من خلال باب موارب أَسِرَّة غير مرتبة، والثـاني حيث يوجد "عباس" يحلق ذقنه أمام مرآة على الدرج. عنـدما أصـل إلى الأعلى أجد "ثيليا" تغلق حقيبتها وتكسر السـحر: "أيـن كنـتِ؟"، تقول، "يا له من رعب ذلك الذي أصبتني به"، أعتذر: "لم تحن الثامنة بعد"، على الدرج أحكي لها عن نزهتي، لكن عند الدخول إلى المطعم يقترب منا "صلاح" ويسأل: "هل رأيتما "أمل"؟"، ينطلق إسباني مـن خلفنا: "كان بالأمس يبحث كالمجنون عن امرأة"، لا أسـتدير، تنظـر إليه "ثيليا" بعينين باردتين، بينما تؤكد: "لم نر "أمل""، يتوجـه حينهـا "صلاح" إلى "ثيليا" باللغة العربية، وبعدها تأخذني هـي إلـى ركـن وتقول لي بصوت خفيض: "يبدو أنه لم يعد هذه الليلة، على الأقل، لم

يظهر، في غرفته". أقول: "ربما نام تحت النخيل"، تشــعر بــالحنق: "هذا غير ممكن، غير ممكن".

-70-

يأخذوننا جميعاً إلى فندق آخر لنغادر منه، تحدث "محمــد" مــع رجل البوليس الذي يرافقنا. ننتظر "أمل" إلى جوار حمَّــام الســباحة، لكن "أمل" لا يظهر، "لا أحب هذه الحكاية"، أقول لــ"ثيليــا"، أخمــن شيئاً غامضاً، فجأة تسقط الشمس عليّ، أشعر بها أكثر من أي وقــت مضى في الصحراء. ولا تزال العاشرة صباحاً. تلفني ســحابة مــن النور الأبيض، عَماءٌ، أرى من خلاله الطاولة، تماماً كما كانت الليلة الماضية، والكراسي غير منتظمــة، بعــض الزجاجــات الفارغــة والأكواب على الأرض، وطفايات بها أعقاب سجائر، والحمَّام ممتلئ حتى المنتصف، والمسرح خالياً...، والآن يبدو كل شيء خالياً بسبب القلق الكبير: لا أحد يتحرك، لا أحد يغادر طاولته، لا أحــد يتحــرك حركة فجائية، أو يرفع صوته، أنظر إلى الســماء، لا زلــت لا أرى الشمس التي تثقل عليّ: غَيَّر الحرُ وطأته، "سنعود من دون "أمــل""، أقول، و"ثيليا": "ربما يأخذوننا إلى تريم، لكن قائد الطائرة من المؤكد سيخرج من هنا إلى المطار"، أكرر: "سنعود من دون "أمل"".

-71-

أستمر عمياء: ذهبنا إلى "تريم" بــدون "أمــل"، لا أســتطيع أن أصف ما شاهدناه، لا أذكر سوى مقبرة "أحمد بن عيسى" التي تعرفت

عليها في الطريق، أما النخيل الذي شاهدته اليوم فقد كانت صـــورته باهتة بالنسبة لي، والمناظر بلا أهمية، ملتفة في سحابة من التــراب. بدون "أمل" وصلنا إلى المطار، وقائد الطائرة معنا، في انتظار إشارة الصعود إلى الطائرة. لم يصل رجل البوليس بعد. يسيطر طنين على رأسي كما لو كنت أدور بلا اتجاه، كما لو كنــت مخــدرة، خــارج وعيي، لا أعي ولا حتى نفسي. أتجول وأنا على هــذه الحالــة فــي المطار الواسع، وأتوقف في مواجهة "صلاح" المنكمش على كرســي في أحد الأركان، بنظرة تائهة. أقول: ""صلاح"، أنا لا أستطيع السفر، وأنت؟". "ثيليا" التي تبعتني تمسك بذراعي وتقول: "سأتحدث مع قائــد الطائرة"، وتسحبني إلى حيث يوجد.

أسمعهما يتحدثان لفترة طويلة، لكني لا أفهم أي شيء من جمود أصواتهما ولا إيقاعها، لقد كان حواراً سريعاً فقط، الذي يؤكد فيه كل منهما وجهة نظره، ربما تحاول "ثيليا" إقناعه بشيء وهــو يــرفض بلطف. نعم، أفهم من نظرة عينيها أن الأمر متعلــق بهــذا، وهــي مصممة وماهرة، لكن يأخذها الطيار، ويتركانني هناك. يقترب منــي "عباس" ويقول: "لقد نسيت آلات التصوير". "ترى مــا الــذي نســيه "أمل"؟، هل نسي نفسه"، أقول غائبة عن الوعي، "لقد نسي جزءاً من نفسه منذ أيام".

وأخيراً وصل رجل البوليس، لم يظهر "أمل" بعد، يبحثون عنــه، وأي أنباء عنه سيبلغوننا بها. أصعد إلى الطائرة، تمسك بــي "ثيليــا" وأجلس بالقرب من باب الكابينة تقريباً. أنظر من النافذة وأرى الجبال هاربة، والنهر، والنخيل، و"شبام"، وبعدها من ارتفــاع كبيــر، أرى

الصحراء المتسعة، هذه الصحراء الترابية. أحن إلى الرمل..، "جولد مور". يغزوني الإحساس بالعودة إلى "جولد مور". أغلق عيني، أحني رأسي، وأشعر كما لو أعتمد على "قيس"، أشعر بشعره الأجعد، بشرة صدغه ووجنته. ويهدهدني النوم.

-72-

أخذوني إلى "مقيل"، ولكننا نواصل الطيران إلى صنعاء دون أن نهبط من الطائرة. أواصل ترك نفسي عبر نوم متقطع طوال هذه المسافة، التي نكاد نمضيها كلها بين السحاب، وبعض المطبات الهوائية التي تمسك بي فيها "ثيليا" وتقول لي: "لن يحدث شيء، لن يحدث شيء"، كنت متأكدة منه. لقد بدءوا يعلنون أنه بقيت لحظات على الهبوط.

-73-

في صالة الانتظار من جديد، لأنهم قرروا إبقاءنا لبعض الوقت: هناك عدد من رجال البوليس، ومن كان يرافقنا كان يتحدث معهم ومع "محمد". إشاعة بدأت تسري بيننا: عثروا على "أمل" مطعوناً. يقول لنا "فيلكس"، وتمسك بي "ثيليا" مرة أخرى وتذهب بحثاً عن الطيار. يؤكد الطيار النبأ، سيعلنون علينا الآن أن شخصين أو ثلاثة سيتوجهون إلى "حضرموت". لا أحد يعرف التفاصيل بعد.

-74-

"أمل"، لماذا؟، من المؤكد إنها امرأة من الصحراء في منتصـــف الليل المضاء بنور الجبال..، أو رجل، جاء على إثـــر صـــرخة، أو ربما بعد أن لاحظ ما يحدث من مخبئه، ساكناً..، ويعود إلـــيّ إيقـــاع الرقص، تعود الدورات المعقدة التي كانت تدفعني إليها الراقصة ذات الوجنات الوردية بالحناء، التصفيق، وضربات الأيـــدي علـــى جلـــد الطبول، ويسترجع الجسد الصدى..، ومكان "أمـــل" خـــالٍ. بنظرتـــه الخامدة منقطع الضحكة. و"صلاح" يكاد يبكي. ويبتسم لـــي "عبـــاس" بعينين متقدتين.

-75-

فجأة نتجمع نحن الإسبان في وحدة واحدة، ندخل الفنـــدق معـــاً، نتسلم المفاتيح، ونجلس معاً في البهو. سلموني تلغرافاً، أفتحه: "أحبك بلا حدود، "قيس""، ألاحظ أن نوراً ضـــعيفاً لا يـــزال يـــدخل مـــن الشبابيك: تبدأ الدموع في الانزلاق على وجنتي. تقوم "ثيليا" بحركـــة، أقول: "لا شيء". وأمرر لها التلغراف. تقرأه، ثم تضعه فـــي حقيبـــة يدي. تقول: ""فيلكس"، هات لنا كأساً من الكونياك، إنه مجرد إنهـــاك، لم تنم هذه الليلة".

يقف أكثر من شخص، ويعودون بكأس مـــن الويســـكي، وتبـــدأ التعليقات. بعدها يذهب معظم الرجال تقريباً. لكـــن دخلـــت "نبيلـــة"

وتوجهت نحونا ولكنها تقص عليّ أنا ما حدث. "تقول: ""أمـــل" كـــان يشرب كثيراً، في كل ليلة، في غرفته أو في غرفة "صـــلاح"؛ كانـــا يفتحان زجاجة ويسكي ويشربان حتى الثمالة. يتجمعون عدة.."، تقول "ثيليا": "يجب الاستعداد للعشاء، إنه حفل الوداع الرســمي". نـــنهض جميعاً، لكنني أبقى لأتحدث مع "نبيلة" لبعض الوقت. صـــوتها حلـــو جداً، تخفف عني، وأحب رفقتها.

-76-

تدخل "نبيلة" إلى غرفتي، تريد أن تختار لي الفستان لهذه الليلـــة، وتبدأ في النظر إلى الملابس والحلي بينما أدخل الحمّام. عندما أخرج ملتفة في الفوطة والشعر مبتل، تقترب مني، وتضع يدها على كتفي، وتقول: "لقد لعبتِ لعبة خطرة"،. وتكشف في خفة عن ثـــديي: ورود الشهادة تبدو آثارها الخفيفة، مصفرة كثيراً. تنزلق يدها علـــى الجلـــد الذي لا يؤلم، على العكس، إنه بلسم. أتركها تجففه بالفوطة، وتضـــع عليّ الملابس، تنشغل بشعري، تمشطه بخفة بالفرشـــاة، والمجفـــف الكهربائي. كل لمسة دغدغة. وأيضاً دغدغة كل نظرة من نظراتهـــا، التي تستعيد نوراً غريباً ولكن يمكن التكهن به، ينبع عـــن معرفـــة. تعرف "نبيلة"، ما حدث مع "أمل". أنتبه إلى ذلك فجأة. وربما تعـــرف ما حدث مع "قيس". لا نقول شيئاً.

تزينني، بحذق، وتعطرني، وتُلبسني فســـتاناً طـــويلاً، وكـــذلك الحلي. "أقول: "إنه ليس ثقيلاً". حينها تبدأ في تضفير شـــعري وتلفـــه ليسقط قليلاً على جبهتي. "هل تحبين ذلك؟" تســـألني. "كثيـــراً، والآن

جاء دوري"، وأبعد خصلاتها عن وجهها وأنظر إليه، ألمس وجنتها. أُخرج قرطاً من الذهب بدلايات لازوردية، وأضعه لها. أقول: "أريد أن أقدم لك هذه الهدية".

-77-

في السوق من جديد، كان "فيلكس" يريد سَنّ حد جنبيته، و"لويس" يريد أن يشتري جلابية طويلة من القطن تصل إلى الكعبين. أخذوا "ثيليا" إلى الجامعة. بائعات الخبز في باب اليمن كن هناك كعادتهن، لكني لم أكن أرى أية صبية، وفي الساحة هناك مجموعات من الناس، وتُسمع أصوات عالية. نقترب. كانت هناك مجموعات غنائية، في وسط كل منها مغنون يرتدون العمامات، يعزفون على الدفوف ويتبادلون غناء شعبياً كالرومانثي[15].، أقرب إلى الترتيل، مع نغمات قليلة ودقات إنهاء بعد كل مقطع. ينظر إليّ فتى من الجمهور. عيناه كستنائيتان، عميقتان، مشعتان، يُخيم عليهما حزن طفيف، مُفاجِئتَان، ساكنتان لا تريدان الابتعاد عني، وعندما نسير يتبعنا، وعندما نتوقف إلى جوار جماعة أخرى تلتف حول نساء يرقصن، يتوقف. يتبعنا أيضاً إلى باب اليمن فوق. وجهه صاف وفي الوقت نفسه شهواني، يخرج شعره الأجعد من تحت عمامته، والشال الأبيض بالأحمر تنطرح أطرافه على ظهره، نظرته ساكنة وخائفة. ينتبه "لويس" ويمسكني من ذراعي. عندما ندخل إلى أحد دكاكين الملابس يقف لحظات أمام الباب.

---

(15) الرومانثي: غناء شعبي إسباني يعود إلى الفترات الأولى لقيام المملكة الإسبانية – (المترجم)..

ألبسوا "فيلكس" ملابس مخططة بالأخضر و"لويس" جلابية بيضاء طويلة، وجربوا كماً كبيراً من الأشياء وهم ينظرون في المرايا، يفاصلون في الأسعار مع البائع، ويطلبون منه أن يعرض عليهم أقمشة أخرى، وأغطية رأس، وبنطلونات، ويضعون عليّ أيضاً قميصاً، فأقول له إن ما أريده هو عمامة مثل عمامة الفتى، فيطوون العمامة على رأسي، ويعلق "فيلكس" في وسطي جنبية ويأخذني إلى المرآة، فأرى نفسي كفتى يمني. عندما أميل برأسي يرن في داخلي صوت "أمل": أنتِ عروس صنعاء.

-78-

أنا كفّ مليء بالماء الذي يغسل الدم، مليئة بالتراب الذي يسقط ببطء ويهمد، أنا الصمت الرزين الذي يلتقى بكل الصرخات. أنا لست عروس صنعاء، لكني سأتعلم صنع الخبز بيدي، سأتعلم عجن العجين، ووضع العجين في الفرن، وأقدم هذا الخبز كما يُقدم أعظم كنز. وأحرق البخور في بيتي، وسأقدم العطر لضيوفي.

-79-

رغم أن المؤتمر انتهى رسمياً، إلا أن الجميع سيبقون بضعة أيام أخرى. من بين الإسبان فقط "لويس" وأنا سنسافر في الحال، طائرتنا ستقلع في الرابعة فجراً.

بعد تناول طعام الغداء، أرادت "ثيليا" أن تذهب إلى السوق و"فيلكس" سيرافقنا. نصعد المنحدر بهدوء شديد، وندخل دكاناً مليئاً

بقطع من الفضة: جنبيات مشغولة بالكامل، عقود وحلي جميلة جــداً تعود في معظمها إلى يهود. ولكن ما كانت تريده "ثيليا" هــو عقيــق اليمن، أي العقيق الأبيض، قطع صغيرة.. وانتهينا إلى الجلوس فــي حارة أمام طاولة صغيرة مكومة عليها الأحجار، وأمامهــا صــناديق عدة .

يهبط المساء، يبدو أن كل شيء منخول بذلك المنخل الذي تلتقطه بيدها، وتتمعن فيه بعناية. تصلنا رائحة شواء خفيفة وأصوات مبهمة. يتخذ الشارع هذا الطابع الشهواني، ويبدأ في الانكماش، يتحول إلــى خاص جداً، ساخن. فيما يرتسم في ذهني مناخ مفتوح على الصباح، النور يميل إلى البياض، يقترب "أمل" وبعدها يختفي بينما أنا أتوقــف متطلعة إلى الأقمشة، وأشاهد صبية الطبق التي تحملق فيّ من عنــد الناصية، وبعدها يبدأ انفجار ألوان أماكن عرض التوابل. مع ذلك فإن هذا الشارع يبدو رتيباً ويكاد يكون خالياً، يُجَسِّد الوداع.

تختار "ثيليا" خمسة أحجار، وتعرضها عليّ، إنها من نفس ألوان ريش طائر أحلامي، وتبدو يدها سماء، السماء المرمرية. يتردد فــيّ الآن صوت "قيس" الفضي:

**"أوه، يا من تصعد إلى البئر**

**قلبي يطير إليك".**

لكني أظل مخطوفة بهذا الهواء الذي يُركِّزه الشارع في الوداع.

الوداع، أودع "ثيليا"، و"فيلكس"، و"نبيلة"، و"صلاح"، و"علي". أما "محمد" و"قاسم" فلم يعودا بعد من "حضرموت". يبقى "عباس" معي حتى الدقيقة الأخيرة. يقول: "ليس صحيحاً ما قلته لك عن أن لدي زوجتان، لدي واحدة فقط، وهكذا ستكونين أنتِ الثانية. سأنتظرك، أنا جاد"، ويشد على يدي منفعلاً.

والآن البئر، نعم، ظلام "صنعاء" عندما عبرناها مع "لويس" في طريقنا إلى المطار. نسير في صمت، وفي صمت ننتظر، وفي صمت نصعد الطائرة ونُحلِّق. إنها ليلة سوداء، لكن السواد الأكبر هو هذا النفق الذي هو الفراق، إنه الموت، ويفرض الوضع نفسه مرة أخرى.

هنا، في الهواء، يتحول الجسد إلى أثيري، ولكن عند إغلاق العينين أشعر أنه من رمل، من رمل الصحراء التي تستعد في صمت لاحتضان زهرة نهار ممطر، تفتح إشراقها منذ الفجر وحتى الغروب. وفي هذا اليوم تكون الحياة كلها. وفجأة أشعر بشفتي "قيس" على شفتي، حرارة وجهه، وبعدها حرارة جسده الذي أعرفه من خلال ملمس كفه. وأزرق عدن يلفنا ويغزونا. نحن الأزرق، نحن الإشعاع الثابت لـ"جولد مور".

أفتح عيني. لا يزال يخيم الليل. لم يبق سوى القليل لنصل عَمَّان، حيث نتوقف. ينام "لويس" وأنا أنظر عبر النافذة: سواد الأفق

يقترب الآن من الأزرق، وفي الأعالي، في منتصف السماء، أرى القمر في هلاله، على الاستقامة نفسها، في منتصف الفضاء، كبيراً، إنه شعاع الفجر، فينوس، وتحت، يحدد كروية الأرض، شريط أحمر شبه مستدير، انعكاس لاحتراق الشمس التي لا تزال في سفرها الليلي. إنه الشرق، أقول لنفسي، إنها الكواكب التي تناديني، التي تطالب بالوفاء بالعهد، الذي لم أقطعه في تلك الليلة أمام المحيط الهندي، والقدمان غائصتان في الرمال، إلى جوار المياه السوداء التي تلف حركة مدار المصير المجهول.

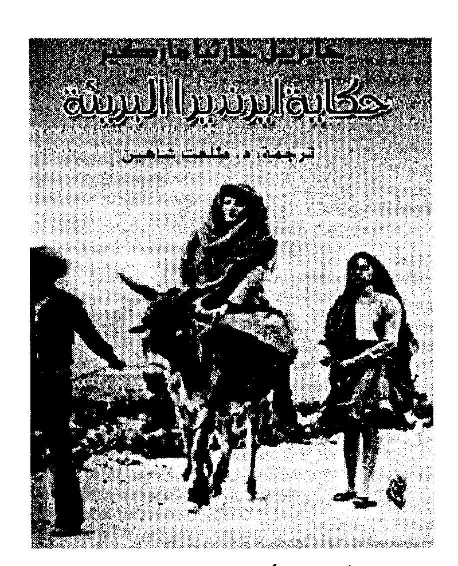
في عَمَّان يودعني "لويس"، سيبقى، وأنا أفكر في العودة إلى "عدن" بينما كنت أتجول في المطار: أُناس ينامون في صالة الانتظار، وأُناس يصلون في الممر ووجوههم إلى مكة. وخلف زجاج النوافذ نور وردي يدفع الظلمة حتى يبعدها، لكن يستولي عليّ ذلك المشهد السماوي الذي رأيته خلال الطيران. أعرف الآن: كان ساكناً في عيني "قيس". نظر إليّ وملأ قلبي بالنجوم، وارتفع الأفق فوق نار دمي. وفي أقصى نقطة في الليل، يحافظ القمر على نظير النجوم. كان فلك الحب مستديراً، والشمس، خبيئة، تكشف عن توهجها الأبدي.

**من إصدارات "دار سنابل"**

- **أن تعيش لتحكي**
  السيرة الذاتية
  جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **ليالى القصف السعيدة**
  نصوص وقصص
  محسن الرملي
- **ليلة شهر زاد الأخيرة**
  شعر
  مقداد رحيم
- **جماليات الرفض في مسرح أمريكا اللاتينية**
  دراسة
  د.طلعت شاهين
- **السكسفون المجنح**
  شعر
  سامي العامري
- **طلسمات مصرية**
  محمد حسين يونس
- **نضارة شمس**
  شعر
  عطية حسن
- **رصيف يصلح لقضاء الليل**
  شعر
  سامي الغباشي

والآن فى المكتبات

**الطبعة الثانية**




## حكاية أيرنديرا البريئة

للكاتب العالمي: **جابرييل جارثيا ماركيز**

ترجمة وتقديم: **د.طلعت شاهين**